رواية

بعيدا" .. عن السماء

جمالات عبد اللطيف

اتحاد الكتاب – لجنة النشر

● الكتاب : **بعيداً .. عن السماء**

● المؤلف : **جمالات عبد اللطيف**

● التصنيف : **رواية**

● يصدر عن

شعلة الإبداع للطباعة والنشر

● المشرف العام

الشاعر الإعلامي / أشرف عزمي

● الإخراج الفني : **أسماء أشرف عزمي**

● ت :

٠٠٢٠١٢٨٠٥٣٤٥٠٢/٠٠٢٠١٠٠٩٢٦ ٢٠٠٠

● البريد الإليكترونيّ:

shoaletalebdaa@gmail.com

● رقم الإيداع : **٢٠٢٠/١٥٥٣٧**

● الترقيم الدولي : **978-977-6681-67- 5**

حقوق الطبع محفوظة

و يعتبر المؤلف مسئولاً مسئوليةً كاملةً عن كلِّ ما وَرَدَ في الكتاب.

إهداء

إلى /د فوزية ابو النجا / د هيام صالح / د وفاء الحكيم / أ منى سعيد/
أ ابتسام الدمشاوي .. نجمات يضئن سماء الروح وجنبات القلب
شكرا" لوجودكن في حياتي

إلى روح شقيقتي / بدور عبد اللطيف
صوتك ، كلماتك ، صدى ضحكتك الطيبة القابع هنا في خاطر خاطري
،يمنحني في أوقات الضيق جواد من نور، يعبربي أسوار الظلمة.. يرحمك الله

إلى هناء جودة / إليك ياونس الروح كل المحبة
إلى منى الشيمي /(قدام غيط ابويه ع الترعة ؛
شجرة كافور كبيرة .. طوال الشهور خضرا ..
في الصيف نسمة طريه وضل ، وخشبها في ليالي الشتا دفى وبخور
عارفه يامنى فيها كتير من ملامح قلبك)

إلى صغيرتي / رفيدة على أحمد /
وأنت كل الحب يا ابنتي .. كل ، كل الحب

إلى .. سميرة عامر محمد ، عفاف عامر محمد
حين أراكما أسترد طفولتي وسنوات صباي والعمر الذي ضاع
دمتما في حياتي

لجميعكن جُل محبتي

جمالات عبد اللطيف

(تنويه هام)

هذه الأوراق التي تطالعونها الآن !
أرسلها ليّ الشاعر والمثَّال/ أ علاء ابو خلعة وهو من أبناء الاسكندرية ويقيم في محافظة مرسى مطروح ،ارسل ليّ مظروف يحتوي على كمية كبيرة من الأوراق وذلك بواسطة الشاعر الكبير
(أ بهاء الدين رمضان)وكان الأخير قد شارك فعاليات مؤتمر ادباء مصر في الأقاليم والذي أقيم في محافظة مطروح .. كُتب على ظهر المظروف : يصل إلى الأستاذة/ جمالات عبد اللطيف
بين قوسين (يُسلم باليد لأهمية وسرية وخطورة ما تضمنته تلك الأوراق !)
يقول الشاعر أ علاء أبو خلعة : أنه وأثناء حضوره إحدى الندوات التي يقيمها قصر ثقافة مطروح ؛ حضر شخص مجهول ،يحمل مظروفا ينتفخ بالأوراق ،وقد ظننا أنه قاص أو شاعر وأنه مع الوقت سيستل قصيدة ما أو قصة قصيرة ليقرأها علينا لكنه لم يفعل وظل طوال الوقت يتفرس في وجوهنا بطريقة مريبة .. ثم وبعد انتهاء الندوة اختارني خصيصا"
وقال : سمعت بأن هناك مؤتمرا أدبيا سيقام على أرض محافظة مطروح ، وسيحضره مبدعون من كل محافظات مصر
قلت : نعم ، هذا صحيح
قال متوسلا" : سأترك بين يديك هذه الأمانة ، والتي أرجو أن تُوفق

في إيصالها لصاحبة هذا الاسم المدون على ظهر المظروف ، وسوف أمر عليك بعد انتهاء المؤتمر لأرى إلام وصلت .

قال هذا ثم ترك المظروف على المقعد الخالي بجواري ومضى دون أن يفصح عن أي بيانات أو يعطي أية تفصيلات .

هذا ما قاله الشاعر علاء أبو خلعة للشاعر الصديق بهاء الدين رمضان .

والآن انتهيت لتوي من قراءة هذه الأوراق .

ويا لهول ما قرأت يا ..... لهول ما قرأت !

لم أنم .. من وقت انتهيت من قراءتها وأنا لم أنم .. أحداثها تقض مضجعي ، تثقل كاهلي،

تنخر بقسوة في عظامي ، وفي داخل داخلي

كلما مررت بقراءة حدث من الأحداث التي مرت بها صاحبة هذه الأوراق وددت أن أصرخ..

أصرخ بأعلى ما أوتيت رئتاي من قوة .

يا سادتي:

قد يرد من خلال هذه الأوراق أحداث ومواقف ، مخجلة مؤسفة، موجعة ، ويجوز حتى مقززة ! لكن الضرورة تقتضي

والأمانة أيضا" تقتضي أن أنقلها لكم كما هي.. بكل وقائعها وأحداثها، وحماقاتها، وتفصيلاتها .

جمالات عبد اللطيف

الفصل الأول

(١)

الثامن والعشرون من نوفمبر ألفان واثنين

كانَ القلبُ يدقُ بعنفٍ، قد انفجرت كل ينابيعه دفعةً واحدةً، ينابيعُ الفرح والخوف ، الجمال والقبح

، الأمل والقلق، الحزن والمرح ، الأنانية والشغف

تمازجت جميعها، خليطًا من الانفعالات الحية، توشكُ أن تودي بي للجنون.

أريدُ أن أبتسمَ ، أصرخَ، ألطمَ خدي بعنفٍ، أبكي بمرارة وأضحك ،أضحكَ ، حتى يسيل الدمع من عيني

إنّ ما أنا مقدمة عليه ليس بالشيء القليل أو الهين. إنه الجنون .. الجنون في أبهى ، وأخس، وأحقر، وأجمل معانيه

إذ سأهرب من البيت ليلا" ، وسوف أتزوج غدا من هذا الرجل الرجلين في ليلة واحدة

سأتزوج من يوسف محمد السيد هريدي وسيعقد القران بحضور عمه مصطفى السيد هريدي

في مقام الحسين وذلك بعد صلاة العصر وكلانا يأمل .. أقصد أنا ويوسف أن يوافق الشيخ الشعراوي على مباركته لعقد

زواجنا

وفي مساء اليوم ذاته سأتزوج من يوسف عماد زخاري وسيتم الزفاف في كنيسة العذراء بشبرا ويباركنا خاله القس عازر راعي الكنيسة ..

سأتزوج من هذان الرجلين .. فكلاهما يحبني وأحبهما معا !

******

كفني وثوب عرسي يتأرجحان الآن أمام عيني، ولا أدري أيهما سيكتسي بدني غدًا!

سأكتبُ مجموعة من الرسائل، لعمي عمران وخالي بكري، وعمدة قريتنا وإمام مسجدنا، وأصحاب المقاهي وسائقي الميكرو باص بقريتنا، وسأكتب لشقيقي خالد في السعودية.

سأكتب ما يصلحُ للحيلولة دون قتلي، ولتخفيف وطأة العار عن عائلتي.

للكلمات أرواح، ونفوس وطبائع، وملامح ورائحة ومذاق؛ لأنها كائنات حية، السحر كلمات، والفرح كلمات، والحزن كلمات.

كلمات تجعلنا نعشق ، نحلم ،أو نألم ونبغض ،نؤمن أو نكفر، نموت كمدا" ، أو نثور وننتفض وننهض!

كلمات يترافعُ بها المحامي عن أحد المتهمين، تجعلُ القاضي ينطقُ ببراءته ، أو سجنه، أو إعدامه.

وكذلك سأفعلُ سأشرحُ قضيتي ليكونوا رحماء بي فلا تنهشُ ألسنتهم عن جهل سيرتي بعد رحيلي

. بعد الانتهاء من كتابة هذه الرسائل سأحفظها في حقيبتي مع أوراقي المُهمة إلي أن يتم زفافي علي يوسف مساء الغد كما هو مخطط له، سأرفقُ مع كل رسالة صورة من حفل الزفاف، وأخرى من عقد الزواج، وأقوم بإرسالهم من القاهرة بالبريد السريع.

أعرفُ أن ذلك لن يحول دون حدوث الفضيحة ، أعرفُ ذلك جيدًا، لكنها ستكون فضيحة مؤقتة، آمل ذلك.

***

منذ قليل كان رأسي مليئاً بالكلمات.. كلمات تأخذ شكل طيور، وحبات قمح ، ونعناع ، ومسك ، كؤوس من الحنظل ،
وشهد، وجنون وعطر.. عالم من الكلمات .
بسطت أوراقي ، وأمسكت بقلمي ،فلم أجد في رأسي من شيء.. لا شيء !..أين هي الكلمات ؟
. قرأت العديد من الكتب عشرات، العشرات ، من الكتب ، وامتلأ عقلي بالحكمة والسخافات ،العذوبة والقرف
حقائق وأكاذيب ، سحر، وأوهام ، خُيالات ودجل ،عفونة كبيرة ، وروعة وجمال !
أتساءل الآن بدهشة، بجنون أين ذهب كل الذي قرأت.. أين ؟
.سأهدأ قليلا" الآن لتعد أسراب الكلمات المضطربة الفزعة ، وتحط بهدوء على صدري المحزون ، وسأنتقي بعض منها لتكون رُسل سلام بيني وبين أهلي.. وبين أهل قريتي وعائلتي .
* **
يا عمي تعرفُ أني حاولتُ كثيرًا مع أمي، حاولتُ أن تتركني وشأني، لكنها مُصرة على زواجي من زوج المرحومة أختي، مُصرة على أن أحل مكانها، أعاشرُزوجها، وأسكنُ بيتها، وأربي صغيراتها.
ولما قابلت طلبها غير العادل بالرفض، وقلت لها:
إن هناك من يرضى به عقلي وقلبي، وترضى به نفسي زوجًا لي؛ ثارت ثائرتها.
سبتني ولعنتني وقذفتني بكل ما طالته يداها، ثم جمعت أصابعها أسفل ذقنها وقالت مُتوعدةً:
إن جعلتك تخرجين!

سجنتني يا عم، ومنعتني من مزاولة عملي، وأقسمت علىّ أن يتمَ زفافي على زوج المرحومة أختي يوم الخميس القادم وقالت إنك ستكون المُوكل بإتمام عقد الزواج، وأنا لا أرضى أن تُوقعَ يدك الكريمة ظلمًا عني.

يا عم أعرفُ يوسف منذ شهور قلائل، إذ كانت أمه تُعالجُ في المستشفى الذي أعمل به.

يوسف يا عمي لم يلمسْ قرطًا في أذني، أو يُقبِّل (لا سمح الله) كفي لم تقترب أنفاسه من وجهي، عنقي، لم يحطْ بذراعه خصري أو حتى كتفي.

(هذه الكلمات لن تؤثر في عمي)

فقط أقول :عرضك مُصان ..مصان يا عم.

مرفق مع خطابي صورة من عقد الزواج، وصورة من حفل الزفاف، محرومة من زغرودة أمي، والتفاف الصبايا من بنات الأعمام والعمات والخالات والجيران حولي، يشرفون على زينة وجهي، يرشون العطر على طرحتي وثوبي، ويقرصن ركبتي، فنضج بالضحك، وشباب العائلة يرشون رحبة العائلة بالماء بعد كنسها، ويصفون الدكك علي جوانبها، ثم يجوبون القرية يدقون أبواب البيوت يدعون أهلها لحضور زفافي، يقولون: فرح مريم بنت عمنا، والعاقبة عندكم نشارككم أيام سعدكم، تفرحون ونفرح معكم بأولادكم وبناتكم.

تزغردُ النسوةُ من كل بيوتات القرية، تنطلقُ الزغاريدُ عبر البوابات صاعدةً للسماء، ورائحةُ الخبز والطعام تتخطى بيتنا وبيوت الجيران، وتفوحُ من ملابس العمات والخالات وزوجات الأعمام، ورقصة رجال العائلة وشبابها علي نغمات المزمار البلدي، تهتز الأرض تحت أقدامهم ، وتبتسم السماء

ووقفتك والخال بكري عند البوابة الكبرى لرحبة العائلة ، تستقبلون المهنئين بعرسي، وشجاركما المفتعل في أيِّكما يحصلُ علي المنديل الأبيض الذي كان يُغطي كف المأذون وكفك أثناء العقد.

آه يا عم قدري أن تدفعني أمي للهروب من البيت لأخالف العرف، فسامحني، سامحني يا عم

ابنتك مريم.

.غباء، ما كتبته غباء وإذلال، لن تحول هذه الرسالة دون قتلي إن أرادوا مزقت الرسالة وبكيت سأكتفي بإرسال صور الزفاف، ووثيقة عقد القران وكفى، هذا في حال نجحت في الهروب

من البيت، وما يدريني أن خطتي ستنجح؟

لا أحد يضمن لي ذلك.

(٢)

بضع ساعات وأرحلُ، طهوتُ عدسًا وسلقتُ باذنجان وفلفلا أخضر، وأخرجتُ من البلاص قطعة جبن عتيقة، فردتُ الحصير البلاستيكية المطوية خلف الباب، وناديت أمي وأخويَّ التوأمين سلامة وعامر، وصغيرات المرحومة أختي، وذهبتُ لأيقظ الجدة، وكانت مُستغرقةً في نوم عميق، بعينين غائرتين وفم مفتوح، وسحنة حزينة، سأفتقدُ الجدة وأحاديثها معي عن السنوات الغابرة من حياتها وحياة الجد، تعرجُ بها الذاكرة إلي قصص ملأى بالإثارة، فتدبُ الحماسة في أوصالها، يمتلأ وجهها بابتسامة عريضة، ويتجعدُ أنفها، ثم تتنهدُ وتقولُ: أيام.

الجدة عجوز ستموتُ دون أن أراها، كانت تسألني دومًا:

هل تبكين فراقي يا مريم؟

أقول: نعم
وتشعلين جنازتي صريخًا وعويلا ؟
أكيد يا جدة
أمك لن تفعلَ ولا حتى خالتك
ثم تقول من خلال سعالها المتقطع:
آآه يا فقر اللي مالها بنت تصرخ في يوم دفنتها وتقول ..
إن حلفوني ما اقول إلا امي
هي الحبيبة اللي تشيل من همي
.يا فقر اللي مالها بنت ..يا ويلها وسواد ليلها .. قال المثل : الواد للكفن والبنت للعفن .
***
.لن أرى الجدة بعد اليوم، ستموت دون أن تسمعَ صوت بكائي أثناء خروج جثمانها من البيت إذ لن أكون هنا
أمسكتُ بيدها اليابسة وقبلتها عدة مرات، فاستيقظتُ.
ليس للجدة خد لأقبله، ملح الدموع الذي طالما ألهب خديها، جعله يجفُ فقط، طبقة شاحبة
من الجلد المجعد يكسو عظام الوجه.

(٣)
كنت أحاولُ أن أقولَ وداعًا بطريقتي،
كنت أود أن أعتذر عن كل العذابات الخسيسة التي سأسببها لهم عقب رحيلي

وددت أن التمس المغفرة من أمي لما سيلحق بها من الخزي والألم
أعطيتُ لكل من عامر وسلامة شقيقيّ التوأمين، أعطيت لكل منهما ورقة مالية فئة العشرين جنيهًا، التمعت عيناهما بالفرح، وقفزا في الهواء وعانقاني، قلتُ لهما لا تخبرا أمكما بهذا الشيء.
عامر يشبه أبي تمامًا، ارتباطه بي يفوقُ ارتباطه بأمي، سيؤلمه غيابي، وسيبكيني طويلًا، سأفتقده وسأفتقد سلامة ومواقفه، وآراءه ورجولته المبكرة، يشعرك دومًا أنه كفء للمسئولية، وأنه قادر علي إنجاز الكثير من المهام، دائمًا يذكرنا بأنه أصبح رجلا، وأنه وبعد عامين سيتم استخراج بطاقة شخصية له، هما الآن في الصف الثاني الإعدادي.
يسيران في درب التعليم بخطى لا بأس بها، حبيبيَّ سأفتقدكما.
أخذت صغيرات المرحومة أختي في حضني، وأمطرت خدودهن ورؤوسهن بالقبلات، دسست في يد ليلي أكبرهن ثلاثين جنيهًا، قالت وسط دهشتها: لِمَ؟
قلت: اشتري لك ولأختيك حلوى ولبان ومشابك للشعر، أريني ذوقك ومهارتك في الشراء.
أنت كبيرة أخوتك، عشر سنوات ليست بالقليل.
قالت يُسرا – ثماني سنوات – ولا أنا صغيرة، أشتري لنفسي، وبقيت آيات أصغرهن صامتةً، تقلبُ النظر بينهما، أخذتُ وجهها الصغير بين راحتي وقلتُ: وأنت حبيبتي ماذا تريدين؟!
قالت: ماذا تفعلُ أمي في السماء؟ لماذا لا تأتي إلينا؟!
تتلكأ الكلمات في فمي، ولا أجيبُ بشكل قاطع.
قالت متى تأتي أمي من السماء؟
قلت: أتعرفين أبي أيضًا في السماء.

رفعت وجهها الصغيروقالت: بعيدة السماء.
قلت: تحبين الخالة مريم؟ أومأت برأسها.
قلت: اذهبي مع إخوتك لشراء الحلوى.
قالت: وأشتري لأمي عقدا ؟
قلت: لا بأس اشتري لها عقدا
* * *

أعددت لأمي كوبًا من الشاي، كانت تضعُ جلبابها الجديد في حجرها، لتقوم بثني ذيله، كانت تضيقُ عينيها لتدخل الخيط في ثقب الإبرة، مددتُ يدي لأقوم عنها بتلك المهمة، لكنها رفضت وأشاحت بوجهها بعيدًا عني، قاسية أنت يا أمي وكأني لست ابنتك، وكأني لم أسكن يومًا رحمك، لم أرضع يومًا ثديك، لم أكن قطعة منك فصلت عنك وظلت تتبعك، قاسية أنت.

(٤)

شجو اليمام لم ينقطعْ منذ صباح اليوم، تقول الجدة اليمامات حنونات يشعرن بآهات الناس، تلفح قلوبهن الرقيقة؛ فينُحن.
تُرى ماذا يردن أن يقلن ليّ ؟ أهي أنشودة وداع؟ أم تحذير من أمر ما أجهله أنا ويعلمنه؟ ما هذه الخرافات يبدو أني جننت ، اليمامات تغني لأن لها أجنحة تنجو بها من الموت، أعشاشها فوق أغصان الشجر ليس لها جدران ولا أبواب تسجن خلفها، لا تبني عشها إلا مع من ترتضيه، ويرضى بها، هي تنجو من تعاسات الحياة التي نعيشها، لهذا فهي تغني فقط تغني.
* * *

فوق سطح بيتنا، في هذا الركن الذي يقع ما بين – عشة الحمام – والجدار الذي يفصل بين بيتنا وبيت عمي، في هذا الركن، لطالما بكيت، بكيت موت أبي، وموت أختي، كنت أحلم باليوم الذي اكبر فيه وأصبح طبيبة القرية، يفرح أبي، يقولون له: أبو الدكتورة كما هو الحال مع العم (فتحي السعيد) المقاول أبو الدكتورة فاطمة التي تجلها القرية كلها بكل ساكنيها .. .

يجلس أبوها في المنظرة ويأتي إليه الناس من ذوي المرضى لتتوسط لهم ابنته وتتمكن من إيجاد سرير متاحٍ في إحدى المستشفيات الحكومية وللحق وللأمانة فعلت ذلك عندما كان والدي رحمه الله يعاني من سرطان المثانة في مرحلته الأخيرة

***

لطالما حلمتُ بألا أكونَ طبيبة فحسب بل الأكثر شهرة بين الأطباء ويصبح لاسمي بريق ذهبي أخَّاذ ولكن دائما" تستعصي عليَّ الأحلام

مات أبي وانهار مجموعي، وأصبحت ما أنا عليه الآن.

بكيتُ هنا غياب شقيقي خالد، حيث هاجر إلي السعودية، يعملُ في إحدى المزارع هناك من أجل المال ليكون بمقدوره إعادة بناء بيتنا، إذ كل البيوت التي نهضت علي أعمدة أسمنتية سامقة وقوية، جعلت من البيوتات التي ما زالت علي الطراز القديم مثل بيتنا، جعلتها تبدو هزيلةً تشي بالبؤس والفقر، البنات الآن يرفضن الزواج في البيوتات القديمة، ما جعل الشباب يسعي بهمة لهدم القديم، واستبداله جديدا .

(٥)

الشمس مالت كل الميل صوب المغيب، الناس مشغولون بجمع محصول الذرة والبلح، ترى ماذا سيقولون عنّي في تجمعاتهم على المقاهي وفي الساحات والحقول والعربات بعد أن ينتشرَ خبر هروبي من البيت؟!

سيتعاطف معي البعض، والبعض الآخر يلعنني، خاصة أمام فتياتهم في البيوت حتى لا يقلدنني ، سيقسمون أنه لو كنت بنتهم لما سكن لهم خاطر ولا أستقر لهم مقام، قبل أن يروا ظمأ غيظهم من دمي، سيبصقون كلما ذكر اسمي، أعرف ذلك ، أعرفه جيدًا، ولكن ما حيلتي؟

ساعات وأرحلُ، ستلدُ السماءُ صبحًا جديدًا، لن أكون فيه ضمن أفراد أسرتي سأرحلُ، وسيكون وداعًا صامتًا.

ليس فيه من جانبي: إلى اللقاء وأراكم بخير.

وليس فيه من جانبهم: اعتني بنفسك، تصحبك السلامة.

إنه وداع لن يعقبه لقاء، كوداع الموتى للأحياء.

* * *

همس يتردد داخلي الآن ، يكاد أن يذيب القلب، أهو الحزن؟!

نعم هو الحزن تتتابع موجاته لتضرب هذا القلب.

أخافُ على حبيبي الساكن قلبي، أخافُ عليه من طوفان الحزن أن يغرقه، يئن عليه قلبي وكبدي. لو كان بمقدوري أن أسكنه أحشائي وأبقيه فيه لا ألده إلا في فجر من المحبة والسلام، يخلو تمامًا من الأحزان، لو كان بمقدوري!

لدي رغبة قوية أن أنامَ بجوار عشة الحمام، أتكورُ على نفسي، وأنكمشُ كما الجدة في ليالي الشتاء.

بالكاد أقاومُ هذه الرغبة، ولكن يجب ألا أنحني أمام الساعات القادمة، لو انحنيتُ أمام الوقت سيتخطاني ويركلني في مؤخرتي ويسخر مني

وينزلق، ويتركني ها هنا وحيدة حزينة بائسة، حيث يقتادونني إلي زوج أختي ذلك الذي قرفتُ رؤيته منذ وفاتها.

أكرهه وأعتبره المسئول عن موتها، دفع بها دفعًا لنهايتها كان يعلمُ جيدًا أنه إذا ما حملت مرة أخرى، فسوف تكون نهايتها، هذا ما أخبره به الطبيب عقب ولادة البنت الرابعة والتي ماتت في بطنها قبل أن تولدَ. لقد نجت أختي بأعجوبة من الموت، كان عليها أن تتوقفَ عن الإنجاب مرة أخرى، لكنه يريدُ الولدَ وتريدُ أن ترضيه.

هكذا قالت ليّ عندما مررت ببيتها عند عودتي من العمل، وكانت تجلسُ أرضًا وتضعُ بجوارها جوالًا ملؤه قمح، وكانت تغرفُ منه وتصبُ في صينية كبيرة من الألمونيوم، تنقي القمح من الحصوات السوداء الجافة من طمي الأرض، وكانت تضعُ خلسة تلك الحصوات في فمها وتمتصها، وكانت تلك عادتها، عندما تكون حاملًا في شهورها الأولى، صُعقتُ لما رأيتُ ذلك، ضربتُ على صدري، وقلتُ: فعلتها مرة أخرى، لقد حذرك الأطباء بعد الولادة الرابعة، أنجبتِ أربعا علي التوالي.

قالت: بنات، كلهن بنات.

قلتُ: صحتك لن تتحملَ الإنجابَ مرة خامسة.

قالت: وقلبه لن يحتملَ الحرمانَ من الولدِ أكثر من ذلك.

قلتُ: انتظري علي الأقل.

قالت: عمر الإنجاب لا ينتظر، ثم قالت وهي تتنهد بأسي:

في العيد بكى قلة الولد، حيث إخوته يصطحبون الولدان إلى المساجد بجلابيبهم البيضاء، ليصلوا معهم صلاة العيد ويكبرون.

ثم أردفت: الولد سند وعكاز أبيه.

قلتُ: دعك من هذا الكلام، الله هو السند الحقيقي.

قالت بحدة: ونعم بالله، ولكن في هذا لا تحدثيني.
الأنبياء أنفسهم كانوا يطلبون من الله الولد.
قلتُ: أنت لا تصغين إلا لرغبته، وستدفعين عمرك ثمنًا لها.
تركتها ومضيت وكنتُ حزينة وغاضبة.
في الشهر الثامن من عمر الحمل نزفتْ، ومات الولد في بطنها، وأمضى الأطباء جلَّ وقتهم لإفراغ أحشائها من الطفل، وفشلت كل محاولاتهم، كانت أحشائها متمسكة به، ولا تريد أن تسقطه، تمسكت به حتى آخر أنفاسها.
* * *
الموتُ لصٌ، يستل الأرواح، كما تستل الفتيل المشتعل من جسم الشمعة البارد، يجئ الموت خلسةً بالليل أحيانًا، مُتدثر بالظلمة، يفتضحُ أمره في النهار يُنادى في المساجد عن الفقيد واسم العائلة التي ينتمي إليها، تنطلقُ صرخة تعقبها صرخات.
ماتت أختي ونودي في المساجد عن موعد الدفن، امتلأ المسجد بالمصلين من كل الأعمار، حملها الرجال علي أكتافهم ومضوا منخفضى الرؤوس، يحثون الخطى، صرخات النسوة تتبعُ خطاهم ، وبكاء صغيراتها تذوب بفعله الأكباد، وعويل أمي التي كان رأسها ووجهها مغطى بالطين تصرخ: يا بنت عمري، يا بنت قلبي.

تبكي تلك التي سبحت في أحشائها، ورضعت من ثديها وتابعتها بقلبها وهي تكبر يومًا بعد يومٍ، تبكي صديقتها وكاتمة أسرارها وأول شفتين أسمعتاها كلمة أمي.

بعد مراسم الدفن يذهب الرجال إلى الرحبة لاستقبال المعزين من الرجال .

في البيت يصطف النسوة من العمات والخالات بينهن أمي تتلوى ، تتأوه من شدة الألم وملامح وجهها تعتصر.

يصطففن بجوار الحائط يجلسن، يطأطئن الرؤوس ، والنسوة المعزيات يتوافدن إلى البيت الحزين تسبقهن صرخاتهن

يُشِحن بالمناديل السوداء ثم وقبل أن يجلسن يمررن على الجالسات وتكون المصافحة كما هي العادة المتبعة في الجنائز، يمسحن بأكفهن على الرؤوس المثقلة بالحزن، ثم يجلسن ويبدأن العديد ، فتمطر العيون دموعها وتظهر النسوة القريبات تعاطفا" كبيرا"

وبعضهن يتمنى أن يعبُرن بوجدانهن إلى تلك القلوب الحزينة ، وينفذن إلى عذاباتها ليحملن بعضا" عنها.

يأتي الحزن ويمضي تاركا" في القلب حسرات لا تحصى، ومرارة لا تؤذن برحيل

***

دفنت أختي صباح الثلاثاء، تاركة خلفها ثلاث صغيرات وكومة حزن يصل ارتفاعها للسماء.

ثلاث فتيات كلما مررن أمام أمي تقول: صغيرات، صغيرات يا ربي، لو كنت تركت لهن أمهن، تُردِدُ عديدًا مُوجعًا، ثم تهدر بالبكاء حتى يجف فمها ويضيق صدرها، ويوشك قلبها علي التوقف.

صعبان عليّ ردة مخدتها * يا قلة الفرحة بخلفتها .

عدمك خسارة يا ام شال حرير*غيبتك طويلة وحشتيني كتير.

تنهاها الجدة وهي تعقبُ بهذا العديد

استغفري ربك، الموت علينا حق لا بيدي ولا بيدك.
استغفري الرحمن، ماتت الصحابة والرسول كمان.
تتمتمُ أمي بالاستغفار، تستندُ بيديها على الأرض، لتنهض ، تقفُ نصف معتدلة وقد أحنى الحزن ظهرها ،
وتمضي كامرأة مسنة، ملء خطواتها حزن وألم.
* * *

كانت أختي بنت بيتها، توقره وتجمله، تعملُ على نظامه ونظافته، تكسو جدرانه باللبلاب الأخضر، وروده الصفراء تتألقُ تحت أشعة الشمس البرتقالية، جعلت من باحة بيتها حديقة صغيرة من الريحان والنباتات المزهرة، كانت تلملمُ الثياب التي اهترأت على الكوعين والكتفين، تعملُ فيها المقص، تأخذُ الأجزاء السليمة منها، وتقصُ منه بضعة أشكال منها ما يأخذُ شكل مربع أو دائري، أو شكل قلب أو وردة وتخيط جوانبها، وتحيل الباقي إلي قصاصات صغيرة لتحشو به ما سبق وخاطته وفي دقائق معدودات، تهركُ بمجموعة من الوسائد متقنة الصنع، تتأملُ بفرح ما صاغته يداها.
تقول: خائبة المرأة التي تلقي بهذه الأشياء، ما لم يعد يصلح للباس يصلح لأشياء أخرى.
كانت شقيقتي خليلة زوجها، أمه وأخته، تعنى بصحته، براحته، بمأكله، وملبسه،
تحلبُ البقرة لتسقيه لبنًا، ومن دجاجها تطعمه بيضًا، وتتخيرُ السمين من دواجنها لتعده غذاءً له، وتقول:
من كدك ومن خير يدك.

كانت ودودة قانعة النفس، باسمة الثغر، نظيفة البدن، عاطرة الثوب، تكحلُ عينيها، وتطيبُ فمها بحبات القرنفل.

كيف نسيها هذا الوغد، وطوى صفحتها، كأن لم تكن، كيف؟!

لو حدث العكس ومات من قبلها لبكته كل العمر.

هذا الذي تريد أمي أن تلقي بي إليه!

يكفيه سفالة أنه طلبني للزواج قبل مرور أربعين يومًا على وفاة أختي يكفيه وضاعةً، أنه يبتز أمي فإما زواجه بيّ أو يتزوج بأخرى ويأخذُ الصغيرات منها.

يقول: لا أضمن لك رؤيتهن بعد زواجي، الله يعلم ما إذا كانت الزوجة الجديدة ستسمح بدخولك بيتها أم لا؟! الله أعلم.

قالها دون مبالاة بوقع هذه الكلمات على قلب أمي الموجوع بفراق ابنتها!

مع هذا فأمي تزكّيه وتعددُ من محاسنه تقول لي: أختك لم تأتِ يومًا غاضبةً منه، لم يلعنْ يومًا أبويها، لم يقصرْ في متطلبات بيتها، لم يخزها أبدًا في ضيوفها.

أضربُ كفًا بكفٍ: يا أمي مثلها يُحملُ على الرأس، مع ذلك فهذا الرجل لم يحزنْ عليها قط،، لم يحزنْ عليها!.

أجابتني ملوحة بازدراء: كل الرجال هكذا، لو إني مت قبل أبيك لكان تزوج من أخرى، لتعمر بيته، هكذا كل الرجال.

قلتُ: كلهم؟!.

قالت مُؤكدةً: كلهم!

رددتُ بيني وبين نفسي: إلا يوسف، كلهم إلا يوسف.

* * *

غربت الشمس خفق القلب، وتسارعت دقاته، ودب الارتباك في كل أوصالي، ولماذا أرتبك الآن أهو الإحساس بالذنب؟ أم الخوف من الغد الذي أجهله تمامًا؟!

أشعرُ أني أقفزُ خارج هذا الكون، تتخبطني الرياح، فلا أرض تحملني، ولا سماء أعلق بها وكلاهما أضحى بعيدًا، بعيدًا عني، تُرى ماذا يخبئ ليّ قدري؟!

*****

ومَنْ أدراني ؟، مَنْ أدراني أن ذلك اليوم سيغيرُ مجرى حياتي كلها يوم التقيت يوسف!

مع أن ذلك اليوم بدأ عاديا، يوم من أيامي الطويلة المُضجرة أحمل وجعي، غضبي، حزني، غيظي، أمضي بهم سيرًا وجلوسًا، نومًا وقيامًا، ليلًا ونهارًا، حزني على شقيقتي التي رحلت مُبكرًا تاركةً خلفها ثلاث صغيرات، وغيظي من زوجها الذي يُصّرُ على أن يستبدلنى بها ، وغضبي من أمي التي توافقه، ووجعي ممّا أحملُ، وما أثقلَ حملي.

ومن أدراني؟

من أدراني أن القدر كان لي في هذا اليوم بالمرصاد .. يتتبع خطوي ، يرصد سكناتي وهمسي ، ينصب شباكه حولي لينقض عليَّ في حين غفلة مني !

هل كان إلا يومًا عاديًا؟ أشرقت شمسه في موعدها وطهوتُ "الحريرة" للجدة باللبن والدقيق والسكر كالعادة، وتناولتُ طعامي بدون شهية كالعادة، ارتديتُ زي الحداد الذي تفوحُ منه رائحة الحزن المقبضة، وتناولتُ حقيبة يدي ومضيتُ، أوصلتني الطرقات الملتوية إلي الطريق الاسفلتي، أشرتُ بيميني لإحدى العربات المتجهة لمدينة .سوهاج .

فتوقفتُ، دفعتُ بنفسي داخل الميكروباص، وجلستُ بين الناس. نصف ساعة هي المسافة بين قريتي والمدينة

والعم رجب بائع الكتب القديمة كان يجلسُ في مكانه المعتاد خلف سور مستشفى سوهاج العام الذي أعمل به مُمرضةً، يضعُ الكتب القديمة في أقفاص من الجريد، وصناديق قديمة من الخشب.

ابتعت منه رواية: لعنة الغواية. لماركيز. أقرأُ كثيرًا،

أقرأُ لأهرب من عالمي الضيق الخنيق، إلى عوالم أكثر رحابة.

كتب قديمة، لأسماء كبيرة، بقروش قليلة!

القراءة هي سلوتي الوحيدة، أعشق القراءة وخاصة الروايات، فوق عتبات أغلفتها أنسلخُ عن عالمي وألقي بحمولتي، وأتحررُ من كل همومي الشخصية، أتسللُ إلي عوالمها، وأتوحدُ مع أبطالها، وأسافرُ فيها لبعض الوقت، ثم أفيقُ كما يفيقُ النائمُ من الحُلمِ.

****

كانت ممراتُ المستشفى مُكتظةً، كالعادة بالمرضى، وكانت كومة منهم تتزاحمُ أمام شباك التذاكر، عشرات الأيدي البائسة تمتدُ لموظف التذاكر القابع خلف زجاج الشباك والذي أقسم بدوره أنه لن يأخذ الجنيهات مقابل التذاكر إلا بعد أن ينتظموا ويلتزموا الطابور.

اِلتقتني زميلتي نرجس في الممر المؤدي إلي سكن الممرضات، كانت عيناها تلمعان بالفرح وابتسامتها تملأ وجهها الأبيض الممتلئ المستدير، تأبطت ذراعي، وسارت بي إلى السكن بخطوات نشيطة سريعة ملؤها الحماس، جلست علي حافة السرير، وأخرجت من حقيبتها حلوى الشوكولاه، قالت: حلوى خطوبتي.

قفزتُ على قدمي احتضنتها وقبلتها وهنأتها.

قالت: إنها وضعت عقلها في رأسها، ولم تعد تفكرُ في دكتور إدوارد طبيب المسالك البولية وقالت:

إنه لم يكن يحبها كما كان يدعي، وقالت إنها تبينت ذلك بعد أن انتقلت إلى هنا الدكتورة إيريني طبيبة الأطفال.

ثم تنهدت بعمق، وقالت: إنه تجاهلها تمامًا، وبات يُلاحقُ الطبيبة الحسناء، وقالت:

إن بشنونة مدرس الرياضيات الذي يعملُ في المدرسة المقابلة لبيتهم، قالت: إنه يحبها وأنه طيب ولا يخادع

وأنها سوف تسعده، ثم أخرجت من حقيبتها هاتفا محمولا جديدا ، قالت: أهداني بشنونة هذا الهاتف شاشته ملونة وله كاميرا ويعمل بخطين، وراحت تستعرضُ بفخر إمكانيات هاتفها الجديد وسألتني: إن كنت ما زلت أرغبُ في شراء هاتف محمول، فقلت: نعم.

قالت: إنها لم تعد بحاجة إلى هاتفها القديم – الموتارلا – وراحت تثني على هاتفها القديم وقالت:

إنه حمار شغل ومتين، وإن بطاريته أصلية وكذلك شاحنه.

قلت: أشتريه.

قالت: سأعلمك كيف تستخدمينه ، كيف تكتبين الرسائل وتسجلين الأرقام؟!

وقالت: العلامة الخضراء للاستجابة، والحمراء للإغلاق.

صببتُ كل تركيزي علي أصابع يدها، وهي تتنقل برشاقة وسهولة بين الحروف والأرقام، وقالت وهي تنزع منه الشريحة البرتقالية اللون:

لا تنسي أن تشتري خطًا خاصا بك، وسوف أحضرُلك الشاحن غدًا.

ارتديتُ في عجالة معطفي الأبيض، وخرجنا معا لمباشرة أعمالنا.

قالت نرجس: لديك اليوم نزيلة في عنبر الكلى، القسم الاقتصادي وهذه النزيلة تخصني، هي عمتي ابنة عم والدي وقالت وهي توصيني بقريبتها: إنها لن تنسي لي هذا الصنيع.

وكانت الروايةُ في يدي والمحمول في جيب معطفي، وكان القدرُ في هذه اللحظة يلاحقني ثم يسبقُ خطوي، وكانت كعوب نعلينا تعزفُ فوق بلاط الممرات، والسلالم إيقاعًا يشي بالحماسة وعلو الهمة والنشاط.

* * *

كانت السيدة – رحمة ناروز عبد المسيح – عمة نرجس في ستينيات العمر، لها ابتسامة هادئة ، ووجه فائق العذوبة والوقار، يميلُ قليلًا إلى الحزن.

كانت ترتدي جلبابًا أبيض خاص بالمرضى، وكانت تعقدُ يديها علي صدرها، وكان برفقتها شابٌ طويل القامة يرتدي بنطالا" بني اللون وقميصًا بيجي ، يتضوعُ عطره في المكان – كل ملامح وجهه بدت مألوفة لي – جبهته العريضة، عينيه البنيتين وحاجبيه الكثيفين، وأنفه المستقيم، وذقنه المستدير، وشاربه الذي يغطي شفته العليا.

هذه الملامح ليست غريبة عليّ، أعرفُ صاحبها، رأيته من قبل لكني لا أتذكر أين ومتي؟!

قالت نرجس مشيرة إليّ: هذه مريم، زميلتي وصديقتي وستعنى بك يا عمتي وكأني معك تمامًا.

ثم قالت لي: عمتي رحمة يا مريم، وهذا يوسف ابنها.

سألني يوسف: آنسة ؟

أومأت برأسي إيجابًا.

قال مُشيرًا إلي الرواية التي بيدي: أتسمحين؟

قلت بتحفظ: تفضل.

غير أن الفعل أزعجني ما كان عليه أن يستغلَ صداقتي لنرجس.

تركت الرواية والغرفة ومضيت.

التقتني زميلتي زينب جاءت مسرعة، وأخذتني من يدي وهي تقول: أريدك في أمر مهم.

سألت زينب بقلق: ماذا حدث؟

نظرت إليّ وقد ارتسمت علي وجهها ابتسامة أعرفها جيدًا، لها ابتسامة خاصة عندما تريدُ منك إسداء خدمة ما.

عاجلتها وقد فهمت ما سوف تطلبه قلت: لن أنوب عنك في نوبتشية الليل أتفهمين؟ وهممتُ أن أقسم، فكممت فمي بكفها النحيل، ثم تعلقت بعنقي وراحت ترجوني من خلال قبلاتها، خطيبي سيصلُ من القاهرة عصر اليوم سيبيتُ الليلة فقط، في سوهاج ويُغادرُ عائدًا صباح الغد أرجوك يا مريم لا يمكنني المبيت الليلة هنا.

قلتُ: وماذا عن أمي؟

قالت بثقة: بسيطة أنا أحفظ تليفون عمك عمران وراحت تضغط بأناملها علي الأرقام، وترددُ بصوت مرتفع هذه الأرقام، حتى إذا ما نسيت رقم ذكرتها به، ضغطت علي العلامة الخضراء، ووضعت الهاتف المحمول علي أذنها وانتظرت حتى جاء الرد من الطرف الآخر.

ألو... منزل العم عمران أنا زينب يا خالة زميلة مريم، لا... لا، خير لا تخافي، فقط لدينا حالات طوارئ، تتطلبُ مبيتها الليلة في المستشفى، أبلغي والدتها أرجوك، سلام.

أغلقت الهاتفُ وقالت وهي تهز كتفيها: أرأيت لا مشكلة!

ثم ابتسمت وأرسلت لي قبلة على أطراف أصابعها ومضت، وكانت تؤرجح حقيبتها وتدندن بأغنية ما ...

****

رافقت الدكتور سيد علي – إلى الغرفة التي ترقدُ فيها – أم يوسف – وكانت تتجاذبُ أطراف الحديث مع المريضة التي تحتلُ السرير المقابل لها، وكان يوسف يقلّبُ صفحات الرواية الخاصة بي والتي ابتعتها صباح اليوم.

قام الدكتور سيد بفحص أم يوسف، وكان يطرحُ عليها بعض الأسئلة، وكانت تجيبُ باستفاضة، ولما كانت صيدلية المستشفى تخلو من بعض الأدوية التي يحتاجها المرضى، فقد كان الطبيبُ يكتبُ بها روشته ليتم شراؤها من الخارج.

يوجدُ بشارع المستشفى أكثر من صيدلية، تناول يوسف الروشته وخرج مُسرعًا ليأتي بالأدوية المطلوبة، وقبل أن ينتقلَ الطبيبُ للمريضة المجاورة، طلب مني أن أعلق جلوكوز لأم يوسف، وكتب في الدفتر الخاص بالحالة أسماء الأدوية ومواعيد تناولها.

كانت المريضةُ المجاورةُ تُعاني من وجود حصوات بالكلى اليمنى، وكان الطبيبُ قد حدد لها صباح الغد لإجراء الجراحة، وطلب منها عدم تناول الطعام منذ بداية هذا اليوم.

خرجت برفقة الطبيب، وأحضرت الجليكوز، ولما عدتُ كان يوسف بالجهة المقابلة لي، يمرُ في الطريق ذاته المؤدي للغرفة التي ترقدُ فيها والدته، دخلنا معا، طلبتُ منه أن يضغطَ علي ساعد والدته لأقوم بوضع الإبرة بأحد عروق ظهر كفها، لكي يسري الجليكوز في دمها، شمر عن

ساعده، وقد برز وشم صغير، يأخذ شكل صليب، نقش في باطن ساعده، أعلى الكف مُباشرةً.

كنتُ أعاني من الصداع الشديد منذ صباح اليوم وكنتُ أحتاجُ لبضعة قطرات من الدواء الخاص برفع الضغط وكنتُ أحتاجُ لكوب من الشاي.

وبعد أن اطمأننت من سريان الجلكوز في عروق أم يوسف، وبعد أن أضفت له الأمبولين اللذين أشار بهما الطبيب، طلبت من يوسف أن يراقب سريان الجليكوز ريثما أعودُ، لكنه أجاب بفزع:

لا أرجوك أنا لا خبرة لي في هذا، ثم أمسك بالكتاب المقدس وكانت أمه تضعه إلي جانب رأسها وراح يقرأ.

(طوبى لرجل يؤدبه الله، فلا ترفض تأديب القدير.

لأنه هو يجرحُ ويعصبُ، يسحق ويداه تشفيان.

فأجاب أيوب: ما قوتي حتى أنتظرَ

وما نهايتي حتى أصبّر نفسي؟

هل قوتي قوة الحجارة، هل لحمي نحاس؟!

أتكلم بضيق روحي، أشكو بمرارة نفسي، أبحر أنا؟ أم تنين؟

قد ذبت لا إلى الأبد أحيا، لماذا لا تغفر ذنبي ولا تزيل إثمي لأني الآن أضطجع في التراب تطلبني فلا أكون؟!.)

.وضع يوسف الكتاب بجوار والدته، ثم وضع كفه على جبهتها، وقرأ بعد البسملة:

(وأيوب إذ نادى ربه إني قد مسني الضُر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضُر)

أغمضت أم يوسف عينها، بينما انتابتني دهشة بحجم هذا الكون.

كانت دهشتي أكبر من اتساع مساحة عقلي، ولما استدار بكامله نحوي والتقت عيني بعينه، خفق قلبي بقوة، وراح يدفع بطبقات الغم الكثيفة المتراكمة التي تطبق عليه، وتمنع عنه نسمة الحياة، كما يدفع الهواء بكتل الغمام من فوق وجه الشمس لتشرق ويتم نورها.

يوسف أنت كما رأيتك بعين مخيلتي وأنا بعد صبية صغيرة، إذ كنت كلما سمعت سورة يوسف، يقفز من بين السطور ملمح من ملامح وجهك، حتى اكتملت صورتك فقلتُ: يقينًا هذه صورة يوسف، كما خلقها الله .. كيف؟ كيف تخطيت آفاق الزمان، والظرف والمكان وأخذت مكانك بين الناس كيف؟!

ها أنت تقفُ أمامي الآن أراك، بعين وعيي لا بعين خيالي.

فوجئ بي، أطيلُ النظر إليه.

ابتسمت عينه، فخجلت من نفسي، ماذا دهاني؟!

قال يوسف وهو يعيد ليّ الرواية، التي استعارها مني صبيحة اليوم قال: إن لعنة الغواية هذه – ما هي إلا ملخص لرواية – مائة يوم من العزلة – لجبراييل ماركيز – وقال: إنه مثلي من هواة القراءة، وأضاف: إنه يكتب بعض الخواطر الشعرية.

ابتسمتُ ولم أعلقْ.

أُذن لصلاة العصر من المسجد القريب للمستشفى، فانحنى يوسف وقبل جبهة أمه وقال لها إنه سيذهبُ ليصلي العصر في المسجد، وأنه سيعود ريثما يُسمح بالزيارة في الفترة المسائية، وسألها إن كانت تريدُ شيئًا من الخارج، ثم قبّل يدها ومضى مُخلفًا وراءه بعض العطر، وكثير من الدهشة والحيرة، وكومة كبيرة من علامات التعجب!!!

(٦)

في سكن الممرضات كانت زميلتنا منال تطهو الكبدة بالثوم والخل والفلفل الحار، ما جعلنا نسعلُ حتى أدمعت أعيننا وكانت ترددُ:

استريا رب.

قلت: ستقتلك الريسة إذا جاءت إلي هنا، وربما سكبت هذا الخليط اللعين علي رأسك.

فما كان منها إلا أن جريت نحوي، وعَضّتْ برفق ذراعي، ثم قالت: كُفي عن الفأل السيئ، هذه امرأة مثل العفاريت تأتي على السيرة، ثم رفعت كفيها للسماء وقالت: يا رب اكسر ساقها قبل أن تأتي أو أمتها، فذلك سيكون آمَنَ على أية حال.

قلتُ: سنرى.

تركتها وذهبت لأستحم، تأملت وجهي طويلًا في المرآة المستديرة المثبتة في الحائط بداخل الحمام،

وقت طويل لم أتأمل وجهي، ربما منذ وفاة المرحومة أختي،

غبار الحزن يكسو كل ملامح وجهي بطبقة داكنة كئيبة، أشعروكأني في الخمسين من عمري،

قبل موتها كنت حرة تماما" وفي أتم نعمة ..... إلى حد ما ! اما الآن ...

(٧)

لن أخرج من سكني حتى أعالج هذه الكآبة.

حصلت من زميلاتي علي بعض من مواد التجميل الخاصة بهن، وكنتُ حريصة علي وضع القليل منها، كي لا يتنافى مع زيّ الحداد الذي يشع حزنًا من خلال فتحة معطفي الأبيض،

وضعت كحلًا في عيني، أعملت الماسكرا في الرمشين ووضعتُ طبقة ناعمة من البودرة العطرة، القريبة من لون بشرتي،
وطليت شفتي بقليل من أحمر الشفاه خوخي اللون، رششتُ مزيلًا للعرق تحت الإبطين، وعطرتُ طرحتي وارتديتُ معطفي بعد كيه، ومضيتُ لأقوم بواجبي تجاه المرضى، وقد أصبحتُ أكثروثوقًا بنفسي، مُخلفةً ورائي تساؤلات زميلاتي وتعليقاتهن الماكرة.

* * *

الفصل الثاني

(١)

أقبلَ الليلُ بوجهٍ بَاسمٍ، رائق الطلة، يحملُ بعض الوسامة، أضيئت أنوار المستشفى، وبدأ توافد الأهالي للاطمئنان على ذويهم من المرضى، حاملين معهم الفاكهة والعصائر، وزجاجات المياه المعدنية، يتحلقون حول الأسّرة يدعون الله بأن يُعجلَ لهم بالشفاء،

وينقلون لهم ما فاتهم من أحداث، ومن أخبار الأهل والجيران، وجيران الجيران ويدسون في أيديهم ما تيسر لهم من النقود،
ويقولون بتواضع أقل ممّا يجبُ، لكن المحبةَ تسترُ.
أقومُ بتمثيل دور المنشغلة، أتحدثُ بود إلى المرضى وذويهم وأنا أنتقلُ من سرير لآخر، أقيسُ لتلك درجة الحرارة وأعطي للأخرى جرعة دواء، كنتُ أتحاشى يوسف تمامًا، وكان يدورُ بعينيه معي في كل تحركاتي، وكنتُ ألحظه بطرف عيني.
تُربكني نظرة عينيه، يدقُ قلبي بعنف، ويشتعلُ وجهي سُخونةً، وتُصبحُ أطرافي باردةً كالثلج، تُرى ماذا يريدان مني، يوسف وقلبي؟!
طوال الليل لم أنم، أفكرُ في ذلك المسيحي المسلم الذي يحملُ ساعده صليبًا، وتحملُ جبهته زيتونة الصلاة، لا أنام!

(٢)

صبحٌ جديدٌ من صباحات المستشفى العام، نُودعُ فيه مرضى تم شفاؤهم وخرجوا سيرًا على الأقدام، وآخرون يأملون في الشفاء، والبعض الآخر خرج محمولًا على الأكتاف، وهؤلاء يقول عنهم الدكتور – حفني – أنهم جاءوا إلينا في الوقت الضائع،
فتعذر عليهم إحراز الهدف – هدف الشفاء – فيخرجون من الحياة، وليس من المستشفى فحسب، تلك الحياة التي لا نخرج منها أبدًا أحياء!.
الممرضاتُ في أرديتهن البيضاء، ينتقلن من سرير إلي سرير ليرعين المرضى، وينفذن أوامر الأطباء، والعاملاتُ كعادتهن يشكون التعب، وهن يشمرن عن سواعدهن، ويقمن بأعمال النظافة، وأخريات يقمن بتغيير الملاءات، وأكياس الوسائد بأخرى نظيفة.

المرضى يتكدسون أمام غرف الأطباء، كل حسب تخصصه، تذاكرهم في أيديهم، يتشاحنون ويزمجرون بكلمات غاضبة، كل يُريدُ أن تُسجلَ الأخت الممرضة اسمه قبل الآخر.

صبحٌ جديدٌ ليس به جديد، سوى ما أشعرُبه أنا، في داخلي هنا، في قلبي أنا.

بحثتُ عن نرجس، وسألتُ عنها الزميلات، هي في مكان ما هنا، سوف أجدها لأستعلم منها عن قصة يوسف وأمه، يقتلني الفضول لمعرفة قصتيهما، ولكن ماذا أقول لنرجس؟! ربما سؤالي يلفتُ انتباهها لتعلقي بيوسف، لن أسألها، بل أسألها، ولكن بذكاء وبدون أن أثير الريبة أو الانتباه.

* * *

شمسُ الضحى تتألق في السماء، تُشعُ في الأرجاء كافة ، يتوارى الظل، ويهتُ تارةً، وتارة يهربُ.

كان يوسفُ يجلسُ علي حافة السرير الذي ترقدُ عليه والدته، كان يرتدي بنطالا أزرق وقميصًا سماوي اللون، حذاؤه الأسود في قدميه، وقد لاحظت أنه قصر شعره فبدا مُختلفًا بعض الشيء

لمّا رآني أمسك بالكتاب المقدس وقرأ:

أيتها الجميلة بين النساء حولي عنّي عيناك فقد غلبتاني.

مَنْ هي المشرقة مثل الصباح

الجميلة كالقمر،

طاهرة كالشمس،

مرهبة كجيش بألوية،

كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات؟!

كان يوسف يقرأ، وكنتُ أتحدثُ بلساني مع المرضى، وقلبي وسمعي معه تمامًا، وللحق ظننتُ أنه يستغفلُ أمه ويقولُ كلامًا من عنده!

بعد الظهيرة، كان هناك أقارب وقريبات يزرن أم يوسف، بينهن فتاة تدعى – كرستينا – طوال الوقت تسترقُ النظر إلى يوسف، ولا تكف عن ممازحته، ولم تكن في مزاحها تقتصرُ على القول، بل كانت تمتدُ يدها لتدفعه من كتفه تارةً، وتارة تمسكُ به من طرة رأسه.

لاحظتُ سعادة أم يوسف بذلك، ولاحظتُ أنها تتعمدُ بالقول إن تقربهما من بعض هي ابنة أخيها، على قدر عالٍ من الجمال، غير أنها قصيرة القامة قياسًا بيوسف.

تقولُ أم يوسف: هو لك يا كرستينا افعلي به ما شئتِ.

تقولُ كرستينا بدلال: سأريه.

ما لي أنا ويوسف؟ ولماذا أغتاظُ بهذا الشكل، وترتعش يدي وهي تقيس الحرارة للمريضة المجاورة؟!

قالت البنتُ وهي تنظرُ ليوسف نظرة ذات مغزى: إنها ستبقى طوال اليوم هنا، انتظارًا لقدوم عمتها مارثا وعمها القس عازر.

قلتُ ليوسف وكان صوتي يتطاير غضبًا:

أخرج من فضلك حتى يتسنى لي أن أغيّر جرح المريضة، قلتها وكأني أطرده من بيتنا، قلتها دون النظر إليه.

كيف بلغت بي الحماقة أن جعلت يوسف عن غير قصد يشاهد غيرتي !

غيرتي .. هل جننت؟ هل حقا" لاحظ غيرتي ؟!

(٣)

مباركة أنت يا مارثا ، مبارك زوجك بيتك أولادك

انحنت وقبلت، يده البضة تتخللُ أصابعه مسبحة رصاصية اللون، يتدلى منها صليب فضي.

قالت مُتضرعةً: يا أبونا لا تحرم أختك من صلواتك، هي تحتاجها الآن، سامحها وسافر معي لزيارتها.

جذب نفسًا عميقًا وقال وهو يزفر:

أختك حين هربت لم تتبعْ إلا نفسها المؤتمرة بأوامر الشيطان، باعت روحها للشيطان.

قالت: لم تبع روحها يا أخي، كانت ومازالت مسيحية ترتادُ الكنيسة في الآحاد والأعياد، وللأمانة زوجها لم يمنعها قط من أداء طقوس دينها صدقني، أتعرفُ البراويز التي تزين شقتهما لمن؟، للبابا كيرلس، والشيخ الشعراوي، وصورة العذراء تحمل ابنها،

كانا يطيبان بيتهما بالبخور في أيام الآحاد والجمعة، ولكل منهما مسبحته وتسابيحه، وكانا في الكدر والرضا يرفعان وجهيهما للسماء يقولان: يا رب نحتاج لرحمتك، وغفرانك وأن تبارك لنا وتمنحنا الرضى والقبول بمشيئتك.

قال: حملت في أحشائها مُسلمًا يُصلي في مساجدهم كما أُخبرتُ.

قالت: وفي كنائسنا يُصلي.

قال: أبوه مُسلم.

قالت: وأمه أختك.

قال وهو يشيح بوجهه : لا تحدثيني عنها هي بالنسبة لي ميتة

حدجته بنظرة ساخطة ونهضت على قدميها ، وقد نفذ صبرها قالت : الرب يغفر الخطايا . يغفر للمذنبين . في إشارة لما ارتكبه القس من مجون قبل أن يتم رشمه . ثم أردفت :

الله يرحم الأيام ..حتى الماعز لم تنجُ من ال .... .. تهرأت أعضاؤها لكثرة التعامل معها .. لا داعي لفضح الأسرار الرب يغفر الكثير.

(٤)

(أنا لحبيبي وإلي اشتياقه، أجعلني حبيبي كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدك؛ لأن المحبة قوية كالموت، والغيرة قاسية كالهاوية، لهيبها لهيب نار لظى الرب ، مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، والسيول لا تغمرها)

قرأ يوسف من الكتاب المقدس، كان يقرأ ويسترق النظر إليّ وكنتُ أعطي لوالدته حُقنةً في الوريد،

وكانت زوجة خاله تُمسكُ بذراعها.

كان يسترقُ النظر إليّ، وكنتُ ألحظُ ذلك بطرف عيني.

قررتُ أن أتجاهله، مالي ويوسف، هو في النهاية لن يكون لي،

في السكن قابلتُ نرجس، ولم أسألها عن شيء، لن يعنيني الأمر بعد الآن.

لابد وأن أوقفَ حبه في قلبي، أنزعُهُ من أوردتي، أمسحُهُ من ذاكرتي لابد وأن أوقفَ زحفه وتوغله في نخاع عظامي،

في كامل أنسجتي، لابد وأن أمحو رائحته من رئتي، نعم لابد.

طوال الطريق من المستشفى إلي البيت، مُرورًا بكل بيوتات القرية، وأنا أرددُ هذا: لا بد، ولابد وأن أنجحَ.

نعم مَنْ أنت يا يوسف لتتمادى في دمي، تتوسع في مساحات قلبي؟! تطغى وتتسلط على عقلي المحب لك،

أبغضك حبيبي، أبغضك حد الموت، حد العشق حد الجنون حبيبي، أبغضك !

* * *

شممتُ رائحة خبز أمي من قبل أن أصلَ للبيت، وكلبنا لما رآني جرى نحوي وهز ذيله وراح يتقافزُ فرحًا،

اشتقتُ للجدة وأمي وأخوي وصغار شقيقتي، ستفرحُ الجدة حين أعطيها لفافة البسبوسة، تستقبلها بفرحة الأطفال،

ترفعُ يديها العجفاوين للسماء وتدعو: الله يسعدك يا مريم.

أول أمس مرضت الجدة، كانت تسعلُ وتئنُ وتقولُ: سأموت يا مريم.

قالت أمي باستهجان: لن تموتي، مات ولدك وحفيدتك، وأنت باقية، سنموتُ جميعًا، وتبقين وحدك بالبيت.

تنهنهُ الجدة، ويتردد بكاؤها داخل صدرها الذي تيبَّس بفعل الحزن، وبفعل سنيِّ العمر وما أتت به من مصاعب ومشكلات وفقد للأحباب.

ربتُ على ظهر الجدة الجاف، وقلتُ مُوجهةً كلامي إلي أمي: مات ولدها وهي باقية، وماتت ابنتك وأنت باقية، الأعمار بيد الله.

نظرتْ إلي مُعاتبةً هل أوجعتها؟! هي أيضًا أوجعت الجدة من دون داعٍ، أتمني أن تكونَ الجدةُ شفيت وأن تكون أمي سامحتني، أتمني.

أكلتُ وغسلتُ ملابسي، ولعبتُ مع صغيرات أختي، وذاكرتُ الدروس لأخويّ، حاولتُ النوم فلم أستطع، الشوق لص يسرقني إليه، في كل يوم ألتقي الكثيرين والكثيرين، فلماذا يوسف بالذات، لماذا يوسف؟

تتابع الساعات وعيني لا تنام، لا تنام.

(٥)

صفق بجناحيه وصاح يعلن عن يوم جديد، تبعته كل ديوك القرية، قامت أمي لتحلب البقرة وتضع لها العلف واستيقظ أخواي ليستعدا

للذهاب إلي المدرسة، وبدوري أعددت الإفطار للجميع، واكتفيت لنفسي بكوب من الشاي، وباكو بسكويت منذ الأمس وهو في حقيبتي.
.انتبهت لصوت صفية ابنة عمي تضع الحب لدواجنها ..صعدت السطح إليها مسرعة ، لوَّحتُ لها بالملقاط وبكرة الخيط وكنت أخبأهما في جيب جلبابي ، لتعمِلَهما في وجهي وحاجبيَّ ، وهي البارعة في ذلك
تقول صفية : ضحكتي يا مريم وبان سنك ..وعينك ما قدرت تصون سرك
ثم باغتتني بسؤالها : عاشقة يا بت ؟
أضحكتني طريقتها التي تشبه طريقة ضاربات الودع
أقول لأهرب من سؤالها : هل صدقتِ أنك شاعرة العائلة ؟
ترفع حاجبها بثقة وتشير إلى رأسها في إشارة .تعني بها أنها عقل العائلة ايضا"
ألكُمُها برفق في كتفها وأذكرها بالوقت
تجلس قبالتي تستخدم الملقاط والخيط بمهارة فائقة ، وأستشعر الشعيرات الدقيقة وهي تتساقط من جبهتي وصدغي
وأعلى شفتي
تشبهني صفية .. تشبهني إلى حد التطابق قد يرجع ذلك لكونها ابنة عمي وابنة خالتي أيضا" أبي وعمي تزوجا الأختين
تقول الجدة في وقت غضبها : يا واخدة بنات اختك ..يا سواد بختك
يا واخدة بنات أخوك .. الناس يعزوك
ثم تعقب : الغريب أحسن

(٦)

زميلاتي المغتربات اللائي يبتن بالمستشفى بصفة دائمة، يقلن بأنهن يشاهدن أشباحًا إذا ما مررن من أمام المشرحة، ويقلن على سبيل السخرية: إن أهالي القتلى يأخذون الجثث، ويتركون لنا الأشباح؛ لترعبنا تقول زميلتنا شيماء: إنها رأت يومًا فردتي حذاء يسيران بجوارها، فتجمَّدتْ في مكانها فصارتا قطتين، ومرقتا من بين رجليها، فصرختْ وسقطت أرضًا ومرضت وحصلت علي إجازة طويلة أمضتها في الفراش

حكايات زميلاتي المختلفة عن العفاريت تبعثُ الخوف في نفسي.

وحين أبيتُ بالمستشفى، وأثناء مناوبتى فى الليل، أحرصُ كل الحرص علي عدم المرورمن أمام المشرحة، وأتجنبُ القطط تمامًا، غيرأن زميلتنا فاطمة، أو الشيخة فاطمة كما نلقبها تقولُ:

إن ما يقولونه عن الأشباح والعفاريت ليس إلا أوهامًا من نسج أخيلتهن الخائبة.

وتقولُ: إن آية الكرسي تحرقُ أبناء الجن، وأن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة كفيلتان بدحرهم، ومحقهم والقضاء عليهم تمامًا، ثم تُؤكدُ:

إن كيدَ الشيطانِ ضعيفٌ، كما أخبررب العزة.

* * *

يؤلمني بكاء الأطفال، وتألم نفسي أكثرلو وقفت أمهاتهم في طوابيرطويلة ينتظرن الأطباء، يتململن في أماكنهن، وكأنَّ أقدامهن قد سمرت في بلاط الطرقة، تتحركُ الواحدة منهن بنصفها الأعلى، تهزُصغيرها ليكف عن البكاء، وهي علي مكانها في الطابور، فإن برحت ضاع مكانها، وذهب للتي تليها، ويحدثُ بينهما شجارٌ، لا أحد يعلم إلى ما ينتهي!

تري كيف جرى اللقاء بين أم يوسف وشقيقها القس عازر؟

هل أذهب الآن لأطمئن عليها، ولأرى يوسف؟، تمنيتُ أن أراه ودعوتُ الله ألا أراه، أشتاقُ لرؤيته، وأخشى لقاءه، ألف ، ألف أخشاه، ولمَّا طاوعت نفسي ومررت من أمام الغرفة التي ترقدُ فيها أم يوسف، ونظرتُ بطرف عيني، فلم أجده ولم أجدها، انخلع قلبي وعدتُ أدراجي، وقفتُ بباب الغرفة، وكان سريرها خاليًا، عقدتُ المفاجأة لساني، حتى أني لم أستطعْ سؤال رفيقاتها في الغرفة، أين ذهبتْ من كانت ترقدُ بجواركن؟

كنتُ أحملقُ في سريرها الخالي فحسب.

غير أن أحداهن تطوعت قائلة: ذهبت إلي دورة المياه.

هززتُ رأسي وابتسمتُ، واستردتُ أنفاسي، وأقفلتُ عائدةً لأباشر ما كلفتُ به اليوم من عمل.

بالأمس سألتُ الطبيب الذي يُتابعُ حالة أم يوسف عن حالتها الصحية قال: إن لديها كلية قد توقفت تمامًا عن العمل، وأنها لا تستجيب للعلاج وعليه فسيتم استئصالها.

وقال: إنها ستعيشُ بكلية واحدة، وقال: إن ذلك أمر ليس بالخطير، وأكد أنه سيجري لها الجراحة ربما الليلة أو غدًا، وذلك قُبَيْل سفره للقاهرة، لحضور فعاليات المؤتمر الطبي هناك.

***

في وقت الراحة تبادلتُ وزميلاتي أرقام هواتفنا الجوالة، كنا فرحاتٍ فرحة الأطفال بملابس العيد، منذ وقت قريب كان الأطباء فقط هم من يمتلكون الهواتف الجوالة الآن كثيرات منا أصبحن يمتلكن هذه الهواتف.

(٧)

الشمسُ مالت للغروب.
كانت سماء يوليو صافيةً، وكانت عشرات العصافير تأتي من جهات شتي، لتستريح وتسكنُ قلب شجرة الكافور العملاقة القابعة، داخل سور المستشفى، وكانت تحدثُ جلبة كبيرة لكثرة عددها، لو كنت عصفورة لحلقت حول يوسف وتتبعتُ خطاه، وحططتُ على كتفه، وهمستُ في أذنه: حبيبي مبهور قلبي بك، أحبكَ رغمًا عنّي.
زعقتْ في الخارج سرينة عربة الإسعاف، وعربات الشرطة.
وأحاط رجال الشرطة بالمستشفى وخارج سورها أيضًا وكانت عربات الميكروباص تفرغ عشرات الرجال، جاءت رئيسة الحكيمات على عجل وكانت علامات الغضب باديةً على كل ملامح وجهها قالت وهي تزفر: أكثر من اثني عشر قتيلا وجريحًا، مذبحة شنيعة بين عائلتين.
قلتُ: لِمَ؟!
قالت: أنا حكيمة ولست ضابط شرطة ولا وكيل نيابة.
جرينا لنلحق بزميلاتنا، ونرافقُ الأطباءُ إلي غرف العمليات، وقد تم استدعاء كل أطباء الجراحة لإنقاذ المصابين، ونزع الرصاصات من أجسادهم، ووقف نزيف دمائهم، وأهالي المرضي يتكدسون أمام المعمل، معمل التحاليل، لأخذ عينات من دمائهم لفحصها، والتأكدُ من خلوها من الأمراض ومعرفة فصيلتها، وتسجيلُ الأسماء كل حسب فصيلته.
كان من بين الجرحى طفلٌ في العاشرة من عمره آلمتني كثيرًا نظرة الرعب والحزن التي سكنت عينيه، ووجهه الطفولي البريء، وكان قد تلقي عدة طلقات في كتفه وساقيه أثناء جريه إلي والده الذي تلقى طلقا ناريا في رأسه أرداه قتيلًا، ترى كم يحتاج هذا الطفل من العمر لنسيان ما حدث،

وقد شاهد إزهاق روح أبيه، وصرخات أمه، ووجه الموت، وبشاعة القتل وكل هذا الألم الذي أصاب جسده وروحه.

كم يحتاجُ من العمر؟!

بعد ليلة ليلاء، وارب الصبح بابه؛ ليعلن عن انقضاء تلك الأمسية الكئيبة المزعجة، التومرجيات يشمرن أكمامهن إلي عضد الساعدين، يقمن بتبديل الملاءات، وبتنظيف العنابروالطرقات من بقع الدم التي التصقت بالبلاط، وأهالي الجرحى والقتلى يتقاطرون في الطرقات، يسعون خلف كل طبيب يخرج من غرفة الجراحة، وغرفة العناية يطمئنون علي ذويهم.

والشرطةُ تدفع بهم بعيدًا، خارج المبني، ولكن سرعان ما يعودون تدفعُ بهم لهفتهم إلى هؤلاء الذين يتأرجحون بين الموت والحياة.

* * *

ألقيتُ بنفسي فوق سريري بكل ملابسي وحذائي في قدمي، كنتُ مُرهقةً أتصببُ عرقًا، طوال الليل ونحن نعملُ، ما إن تستقرحالة، حتى تنهار أخرى، أرواح ترد بمعجزة وأخرى تمرق لا شيء يقوى على ردها حيث أُذِن لها بالخروج.

أفقتُ والشمس في ضحوتها، وقد تجاوزت الساعة العاشرة بقليل، أخذتُ حمامًا باردًا، وبدلت ملابسي، وضعت غلاي الشاي علي البوتاجاز، أكلتُ بيضةً وقطعة خبز، وشربتُ شايًا، وعدتُ إلي العمل، وقد تم استدعاء الطبيب الشرعي، وكان رجال الشرطة يقفون أمام غرفة العناية المركزة، وأمام العنابر التي تم نقل من سمحت حالتهم إليها.

مررتُ علي أم يوسف، فألفيتها في حالة صحية سيئة للغاية، وقد أجريت لها الجراحة فجر اليوم، كانت شاحبةُ الوجه، وكان تنفسها بطئ، دقات

قلبها مُنخفضةً، وعيناها غائمتين، كانت تفتحُ ببطء عينيها، ثم تغيبُ عن الوعي من جديد.

جريتُ أبحثُ عن أحد الأطباء، وكان الدكتور خيري خارجاً لتوه من العناية قلتُ بلهفةٍ: لدينا مريضة نوشك أن نفقدها.

ولما فحصها الطبيب قال: إنها تحتاجُ إلى نقل دم فورًا.

شمرت عن ساعدي وقلت : لديكم متبرع

وعلي الفور قامت زميلتي فاطمة مساعدة دكتور خيري بسحب كيس مملوء من دمي ، وفي المقابل أحضرت الزميلة ، كيس من الثلاجة ، وراحت نضخه في عروق أم يوسف

أخذتُ حالتها تتحسنُ تدريجيًا، وعاد يوسفُ، يحملُ كيسًا به علاجات خاصة بها.

قال وهو يلهثُ: بحثتُ طويلا عن هذه الأدوية حتى وجدتها.

كانت لهفته عليها مُؤثرةً، كان يقبلُ يدها ورأسها، ووجهها وكان يمرر أنامله على جبينها المبتل ويرددُ الآية الكريمة: (وإذا مرضت فهو يشفين).

وكان ينظرُلي بامتنان ولسانه يلهجُ بكلمات الشكر، كنتُ أحسُ بزحام الكلمات على لسانه.

قلتُ من خلال ابتسامتي الكلمة التقليدية: لا شكر على واجب.

وأضفتُ: فقط أقومُ بعملي وعملي أنا وزميلاتي والأطباء هو إنقاذ المرضى، ثم ربتُ على يد أم يوسف المعروقة وقلت لها ستكونين بخير

****

كل ركاب العربة التي أقلتني من موقف سوهاج وحتى قريتي.

كل ركابها، كانوا يتحدثون عن مذبحة الأمس، كل يدلو بدلوه، ويروي القصة اللعينة بطريقته، ويؤكد أن ما يقوله صورة طبق الأصل من

الواقعة! حتى السائق كان يشاركهم الحوار، ويضيفُ إلي رواياتهم ما رواه الذين سبقوهم إلي عربته من الركاب، ولم يكتفوا بالسرد، بل راحوا يعملون مخيلتهم، ويشحذون أذهانهم في توقع ما سوف تأتي به الأيام القادمة، وما ينتجُ عن ردة فعل العائلتين وذلك حسب عدد وقوة رجال كل عائلة منهما، وبعد أن يشفى من يشفى، ويموت من يموت، وستقوم كل عائلة بحصر خسائرها من الأرواح، وذلك قبل الجولة الثانية.

ألقيتُ ببصري خارج العربة حيث الحقول الخضراء، وسحبتُ سمعي من تلك الحوارات الدموية الرهيبة.

* * *

لم يمر علي لقائي ويوسف سوى بضعة أيام وكأني أعرفه منذ سنوات وسنوات، يفرحُ قلبي حين أراه، وتقلقُ عيني حين يبتعدُ، أو يتأخر قليلًا عن موعد الزيارة، طيب أنت يا يوسف، قلبك، نظرة عينيك، ابتسامتك.

بالأمس تحدثت إلى قلب أمي من دون صوت: حنون يوسف يا أمي، جد حنون، في كفه نبل؛ لم أعرفه من قبل، وفي صوته نبرة غامضة تأخذني إلى أدغال لم تُكتشفْ بعد، وفي عينيه شفقة لم يلمس قلبي مثلها أبدًا، يجعلني طفلةً مُدللةً، لم تكبر بعد، يحقُ لها أن تلهو، تضحكُ ببراءة وتغني، تغني بأعلى صوت، وفي أي وقت! حتى أنها حين رمقتني بعمق، ونظرت في عيني، أربكتني، فظننت أنها اخترقت حجاب القلب، وكشفت ما به من أسرار! هل يوسف قدري؟! هل يوسف قدري يا ربي؟! أرسلته ليبهر عقلي، يغسل حزني، يزيل غمي ويلطف من احتقان روحي فى صدري أم العكس، أخاف من الغد، ياااا كم أخافه وأخاف حد الموت ممّا سيأتي به! مالي ويوسف ؟ لماذا لا يطاوعني قلبى على إنهاء أمر هو يعرف أنه سينتهي بعد يوم أو يومين؟!.

(٨)

كان اليومُ حافلًا بحالات الولادة، ممّا اضطرني للعمل المتواصل، خرجتُ من غرفة العمليات بعد آخر حالة ولادة وأنا على وشك الإغماء.

ورغم إحساسي بالتعب وحاجتي إلي بعض الراحة، وإلى كوب من الشاي إلا أني لم أذهب إلي السكن، بل للعنبر الذي ترقدُ فيه أم يوسف لأطمئن عليها، وقد ألفيتها تجلسُ علي حافة السرير، وقد ارتدت فستانًا أسود حريريًا ناعمًا ولامعًا، وقد خلعت عنها الجلباب الأبيض الخاص بالمستشفى، انزلقت من فوق السرير لما رأتني، وفردت كلتا يديها لتحتضنّي، قالت: رفضتُ الخروج من دون رؤيتك وقالت: إن دمي يجري في عروقها وأني أصبحتُ ابنتها بالدم، وأنها لن تنساني.

جاء يوسفُ ليأخذ أمه بعد أن أتم أوراق خروجها وإتمام ملفها.

نظر إليّ وكانت لهفته عليّ جليّة ، وشوقه بادٍ لا يخفى في صوته، و نظرة عينه ، و كل تحركاته، وكان جميلًا أكثر من كل مرة رأيته فيها.

وكانت ابتسامته مُبللةً بحنان العالم وكذلك صوته، آهٍ من صوته، وألف آه من عينيه، شلال من العسل البني الطازج يتدفقُ من عينيه العميقتين الأمينتين، الآن أدركت لماذا النسوة في المدينة شغفن بك، وأكبرنك، وقطعن أيديهن، حين خرجت عليهن واستبيتهن بسحرك؟!

صافحني بكلتا يديه، فلما قمتُ بسحب يدي استشعر بالحرج، تأبط ذراع والدته ومضيا، وبقيتُ مكاني أتابعهما، وهما يعبران الطرقة المؤدية إلى السلم، وكان ما بين خطوة وأخرى ينظرُ خلفه ليودعني، كانت دمعتي تشقُ طريقًا للخروج، ولم يكن عبورها سهلًا، وشككتُ بأن الخيطَ الذي سال على وجنتي، شككتُ بأن يكون دمعًا، بل ربما كان ماء عيني.

(٩)

أوشكتُ أن أتجاوز الباب الحديدي الخاص بالمستشفى حين نادت نرجس باسمي، التفتُ للخلف، فجاءت مُسرعةً والهواء يتشاكسُ معطفها الأبيض، فينفرجُ عن تنورة جميلة، وتيشيرت يتناغمُ من حيث اللون مع التنورة ليكوّنا طاقما جميلا جدًا.

أشارت بيدها أي انتظري، وكانت بيدها الأخرى لفافة فضية ذات ورود زهرية اللون، مربوطة بشريطٍ أخضر لامع.

قالت وهي تلهثُ: تركها يوسف لك.

تركتها بيدي وأقفلتْ عائدةً مُتعللةً بمهام كثيرة تنتظرها.

دفعتُ باللفافة في حقيبتي، ومضيتُ عائدةً إلى قريتي، وكان عطر يوسف ودفؤه يتسللان إلى أنفي، ثم قلبي، ثم كامل أنسجتي، إلى عمق نخاع عظامي وكل أوردتي، كانت لدي رغبة شديدة في مصافحة كل الناس، وكنتُ أبتسمُ للنساء والفتيات، والعجائز من الرجال، وأداعبُ الأطفالُ الذين تحملهم أمهاتهم، وأولادهم الذين يمشون ممسكين بأيدى والديهم، أبتسمُ لهم وأمرر أصابعي على رؤوسهم، كان لدي شبه يقين بأن الذين يسيرون بجواري في الشارع أعرفهم، أعرفهم معرفة شخصية، وكذلك الباعة،

وكل هؤلاء الركاب الذين يجلسون في الميكروباص الذي يقلني إلي بلدتي، ليس في القلب إلا الحب، إلا الدفء، وبعض الأغنيات التي غلفها الحزن بدخانه القاتم، ليحل بأنينه محلها في ذلك القلب،

كانت خطواتي تنهب الطريق نهبًا لتصل بي سريعًا إلى البيت، عانقتُ الجدةُ وقبلتُ يديها، وعظمتي وجنتيها الناتئتين، قبلتُ يدي أمي وعانقتُ شقيقيَّ.

وجريتُ إلي الغرفة، أغلقتُ بابها من الداخل مُتعللةً بتبديل ملابسي، فضضتُ اللفافةُ، كانت تحوي رواية مائة يوم من العزلة لجبرابيل ماركيز، وقد كتب لي يوسف إهداء، بخط منمق:

إلى وردة النقاء مريم/ لك محبة لا تغيب .

هناك أيضًا مظروفٌ به رسالة وسلسلة فضية ، يتدلى منها قلب يحملُ أول حرف من اسمي، ودفترًا أوراقه بلون السماء، غلافه أبيض بورود زرقاء، تعلوها فراشات صفراء مُشرعةً أجنحتها، ترتكزُعلي سيقانها الدقيقة، وقد امتلأت صفحاته بأشعارٍوأسفارٍ، كلها من اختياراته، وبعض من خواطره الشعرية.

كانت رسالته أول ما طالعت، يقولُ فيها:

لعلك في حيرة من أمري، ربما لم يردْ عليك من هم في مثل حالتي، أوربما لا تصادفين منهم الكثيرين،

أعرفُ ذلك أعرفه تمامًا.

اسمي يوسف كما تعلمين، والدي هو: محمد السيد هريدي، ووالدتي هي تلك التي رأيت: رحمة ناروزعبد المسيح.

لأبوي قصة حب هي الأروع من كل ما قرأت من قصص، ستعرفينها في حينها ، ابن الحب أنا، على أنَّ هذا الحب لم يجلبْ لي السعادة المرجوة،

وذلك التميزوالاختلاف لم يكن إلا وبالا عليَّ وعبئا على حياتي كلها !
ولدت في شبرا ، في ذاك الشارع الذي تقطنه الخالة مارثا، أمي الثانية عندما ولدتُ قام أبي بتسجيل اسمي واستخرج لي شهادة ميلاد، تحمل اسمي واسم أبي وجدي، وكانت الخالة مارثا قد سبقت أمي ووضعت طفلها أبانوب وكان ذلك قبل مولدي بيوم واحد. فلما ولدت قالت: ولد لنا صبي آخر، يوسف تؤم أبانوب، فاستخرج زوجها شهادتي ميلاد تحملان اسمينا أنا وأبانوب.
بالطبع كانت حياتي مُختلفةً عن باقي الناس، وكانت مُربكةً وإن بذل والداى ما في وسعهما لتكون حياة طبيعية، بل سعيدة!
في أيام الآحاد تأخذني أمي إلى الكنيسة أحضرُمعها القداس، ونصلي، ويباركني الكاهن ويُعطيني قطعة خبز، أضعها في فمي، يطيبُ لي مذاقها، وفي يوم الجمعة أذهبُ وأبي إلى مسجد الحسين، باكرًا نكون هناك حتى نحتفظُ لنفسينا بموضع، قبل أن يزدحمَ المسجد بمريدي الشيخ الشعراوي، تمتلئ رئتاي من عطر المقام، وعقب الصلاة يأخذني أبي من يدي، يشق الجموع لنصل إلى الشيخ الشعراوي.
يقول له أبي: ادعُ له يا شيخنا، اسمه يوسف، فيدعو لي يقول أبي:
أوشك أن يختمَ القرآن يا مولانا، فيبتسم الشيخ ويهديني مصحفه الصغير مسكي الرائحة، من وقتها لم يُفارقني، أريته للأولاد في المدرسة، وللأولاد الذين يحفظون معي القرآن علي يدي الشيخ عبد الرحيم سلامة. إمام مسجد الفتح، أمسك به الشيخ وقربه من أنفه.
وكان يُرددُ: أعطاه لك الشيخ الشعراوي؟ فأومأ برأسي إيجابًا، فيُعاودُ السؤال المرة تلو الأخرى، وأؤكد له المرة تلو المرة، أنه أي ذلك المصحف هو للشيخ الشعراوي ، أهداني إياه.

* * *

أحتفل مع أقاربي بالأعياد الأربعة الكبرى، عيد الفطروعيد الفصح وعيد الأضحى وعيد القيامة، أرنّم في الكنيسة مع الكورال، وأكبرفي المساجد مع أطفال ورجالات قرية أبي.

لكن لا المسجد شفع لي عند أهل أبي. ولا الكنيسة شفعت لي عند أهل أمي.

كلاهما كان ينظرلي ويتعامل معي على أني هجين. . ابن حرام .

أسافركنت مع أبي في بعض المناسبات، يقول أبي: ابن عمكم.

أبناء عمك يا يوسف اقتربْ

أُصغي لكلام أبي، وأقتربُ فيبتعدون، ينظرون إلى ، ويستغربون أني ابن عمهم

يقولون: نصراني، أمه نصرانية ، مع أنهم يلعبون مع الأولاد المسيحيين، ويصادقونهم، ويتناغمون معهم، أما أنا فلا!

والشيء نفسه يحدث مع أقربائي لأمي التي توصيني قائلة: العب مع أبناء خالاتك اقتربْ منهم

أحاول التقرب، أوالاقتراب يقولون:

مسلم أبوه مسلم، يُصلي في مساجدهم، ويحفظ كتابهم، مسلم.

وهكذا كنت بالنسبة لأقارب أبي، نصف مسلم، وحتى هذا النصف مشكوك فيه! والعكس بالنسبة لأهل أمي أنا نصف مسيحي، وهذا النصف مشكوك فيه أيضًا،

يا لغربتي يا مريم، بل هو شيء أقسى، وأكثرمرارة من الغربة، أكثرظلامًا من الظلم نفسه .

* * *

في الثالثة عشرة من عمري ماتت جدتي لأبي ،
وللحق كانت في البداية متحفظة في مشاعرها تجاهي ،كانت امرأة فريدة من نوعها كانت طيبة، وحنونة ،
وحمقاء ،وكريمة ، وكانت تُظهرعكس ما هي عليه ، فلا تُبدي سوى الشدة والصرامة كل الوقت ..
لم أرها إلا بعد وفاة جدي الذي حرم أبي من دخول القرية أثناء حياته ،و كان أبي كلما اشتاق رؤيتها ،
يسافر إلى أخميم ليلتقيها في بيت العمة نبوية شقيقته الوسطى .. وكانت الجدة تطلب منه عدم حضور أمي برفقته.
. كانت الجدة سمراء ، عجفاء ، فارعة الطول عيناها واسعتين ، جدائلها فضية .. لن أنسى أول مرة رأتني فيها
.وكنتُ بصحبة أبي عند دخولها عليك في بادئ الأمر لا تُظهر لك أي من المودة ، بل تبدأ بالعتاب والتقريع من قبل أن تصافحك ، ثم يتغير الحال فتغدق عليك بعبارات الترحيب المبللة بالحنان ، وتجود بكل ما تطاله يداها ..
رغم موقفها المتشدد من أمي إلا أنها وعند عودتنا إلى القاهرة خلعت سوارها الذهبي ودسته في يدي وهمست في أُذني : أُعطيه لأمك
. رحمها الله . كانت في كل لقاءتنا تؤكد على أنني مسلم ابن مسلم، وكانت توبّخني قائلة :
تصلي في الكنيسة يا يوسف ؟
تصلي في الكنيسة و تكتسي بالجديد في أعيادهم ؟
العتب على أبوك .. قِبَل العارَ علينا وعليك

وكانت جدتي أوصت قبل موتها بعدم دفنها إلا في حضور أبي .. وكان أبي طوال الطريق يحث السائق على أن يسرع ،
وانقلبت العربة البيجو التي تقلّه قبل بلوغ هدفه بقليل ، ليدفن مع جدتي في نفس اليوم .
مات أبي وأنا في الصف الأول الإعدادي، وجاء خالي معوض وقال لأمي: بيت أبونا كحضنه، يسعنا جميعًا،
وعدنا معه إلى قرية أمي، وعشتُ الغربة والوحدة بأقسى أنواعها،
وجاء عمي ليأخذني لأنشأ بين أبنائه ففزعت أمي، ورفضت الذهاب معه، وبقيت بصحبتها،
فما ينتظرني هناك ليس أقل قسوة، ابتلعت الكثير من التعليقات التي تشبه شفرات الحلاقة في حدتها في المدرسة،
في الشارع، وبين الأهل، أخبِّئ همي في قلبي ولمن أبوح، لأمي؟ يكفيها ما تحمله وتحتمله.
لطالما بكيت وحدي، بكيت وحدتي التي زادت وتفاقمت بغياب أبي، ليس أشد وجعا للكرامة من نظرة الآخرين لك على اعتبارك هجينا ، لا ينتمي لأي من الفريقين، مكانه دائمًا خارج البرواز. الأسوء من ذلك أن كثيرا من الناس ينظرلي على أني ابن حرام !
أنهيتُ المرحلة الثانوية، ثم التحقتُ بجامعة عين شمس وعدنا إلى القاهرة وكانت خالتي مرثا وأمي قريبتان جدا" بعضهما لبعض، مع الوقت تحققت أخوَّتي وأبا نوب، وكذلك ابنتاهما نرجس ومارتينا.
وكنتُ من وقت لآخر أجئ إلي القرية لزيارة أقاربي لأمي، وكذلك أذهب إلي قرية والدي، حيث أعمامي وعماتي وأولادهم، وأمر علي قبر أبي وقبر جدي، أقرأ الفاتحة على أرواحهم، وأصلي في مسجد العائلة الذي طالما صليتُ

فيه مع والدي، في الأعياد وفي مناسبات الفرح ، والترح حيث يشارك أهله أفراحهم وأحزانهم، ويحرصُ أن يصحبني معه، كان يعرفُ كيف ينظرون لي؟! وكان يحزنه ذلك الأمر، وكان يأملُ في تغير تلك النظرة، ولو بعد حين، مسكين أبي مات دون تحقيق أمنيته.

فكرتُ بجدية أن أهاجر إلى أمريكا، هي تعدُ الأنسب لي من كل البلدان، أمريكا وطن لمن لا وطن له (يقول موريس ابن خالي معوض المقيم هناك منذ سنوات)

يقول : كل من فيها ـ أي أمريكا ـ في الأصل غرباء ، يأتون من كل بلاد العالم، يحصلون على الجنسية، فيصبحون أمريكانا وينجبون أمريكانا، بلد كل الديانات كل الأعراق، كل الألوان، كل الجنسيات، بلد الغرباء، منذ تخرجي فى الجامعة، وحتى وقت قريب كان الوصولُ إلى أمريكا أغلى أمانيَّ، وأهم أهدافي، إلى أن رأيتك.

. قبل أن ألقاك، امتلأت عيني بصور الكثيرات من الفتيات، زميلات وقريبات، وجارات وعابرات طريق، بعضهن لم يتجاوزن عيني، والبعض كن يعبرن من العين إلي الذاكرة ولكن سرعان ما تذوب ملامحهن ويذبن ،

وكان بينهن مميزات يبقيهن تميزهن في الذهن لبعض الوقت، أما القلبُ فظلَ خاويًا يئنُ من الوحدة،

ويألمُ لوحشة الفراغ، وكأنه كهفُ مُظلمُ مهجورُ تنصبُ فيه العناكبُ شباكها، تتصيدُ أغنياته الحزينة تأكلُ نغماتها وحروفُ كلماتها ببرود شديد.

كان هذا حال قلبي قبل أن أراك ، يا من أحييت القلب، يا موطن المعجزات أنت، صوتك معجزة، وحنان لغتك في حديثك مع المرضى

وذويهم معجزةً، تسري المعجزة في دمائك، في نظرة عينك، و ابتسامتك، أحبك يا مريم، أنت امرأة يوسف خلقتِ لي، وخلق يوسف لك، ليكون رجلك وحبيبك، أتعرفين؟ ما من أحد اقترب مني وعرف حقيقتي، إلا وكانت ردة فعله الأولية إما أن يعقد ما بين حاجبيه استنكارًا، أو يرفع حاجبيه دهشةً، هي أقرب ما تكون إلى الاستنكار، إلا أنت يا مريم، إلا أنت، اتسعت عيناك حنانًا وفرحةً، وجنةً من الود والعطف والرحمة.

في كل حياتي لم يمنحني أحد تلك النظرة التي أعادت لي الاعتبار وملأتني بالزهو

نظرة، قالت لي: أحتاج وجودك، بحثتُ عنك كثيرًا، وانتظرتك طويلا.

نظرة شملتني بحنانها، احتوتني بعطفها، بدفئها، وأعطتني عناوين جديدة للأهل، وللسكن، والأرض، والوطن.

أستحلفكُ بالله يا مريم ألا تردي قلبي خائبًا، أرفقي به حبيبتي خذي وقتك ولا تعجلي بقول – لا – فبين حرفي الـ لا ـ تكون نهاية أيامي، فلا تعجلي بنهايتي،

إن قلت نعم سأكون رهن إشارتك.

كل سنوات عمري الآتية هي لك، أزرعها حديقة تنشقين عبيرها، أغرسها أشجارًا تستظلين بها، شمسًا تدفئك،

قمرًا ليضيء لياليك.

كل سنواتي القادمات خادمات حبيبتي

الفصل الثالث

(١)

أعـدتُ قـراءة الخطـاب المـرة تلـو الأخـرى، وشـعرتُ بـدفءٍ يسـري في كـل أوصـالي، ونغمًـا غامضًـا يجعلني أرقـص .. أرقـص حتى ينـداح العـرق ويتقاطر من قمة رأسي إلى قدمي ، يجعلني أغني.. منذ متى أنا لم أغني ؟ لو كنت أغني لما حامت هالات الحزن السوداء حول قلبي ولا تراكمت فوق الروح طبقات من الشقاء داكنة ، خشنة

يا لجنوني هل جربت كلام يوسف ؟ هل شممت عطره ، هل صافحته ؛ وتنهدت راحت يده في يدك وضم بأنامله ظهر كفك ؟ هل ابتسمت عينه لعينك ؟

لو جربت .. لو جربتن لعذرتموني ، وما لمتنني فيه !

، يغمرني شعور بأني أسير فوق السحاب، وبأني الأجمل بين كل النساء.

دسستُ الخطاب في صدري، قلب حبيبي وآهاته، وكل مشاعره هنا.

أخبؤهم في صدري.

حبيبي: أقمت لك داخل هذا القلب معبدًا، سأنقشُ على جدرانه قصتنا، أحلامنا، وألوان انفعالاتنا، هنا على جدران القلب سأنقشُ عباراتك العاشقة، وأصلي هنا لأجلك، لأجلي، لأجل قلبينا.

تدفعني اللهفةُ لمعرفة ما يحمله هذا الدفتر من كلمات غير أن أمي كانت تنادي، وكانت ترغي وتزبد بشتائم لا حصر لها، حين خرجتُ عليها قالت من بين أسنانها:

زوج المرحومة أختك جاء ويسأل عنك سلّمي عليه وقدمي له الشاي.

قلت بحزم: لن أقدمَ له أي شيء، وليس عليه الحضور إلى هنا مرة أخرى، لا أريد رؤيته.. لا أريد.

قالت بإصرار، ستتزوجينه وقدمك فوق عُنقك، يا فاجرة.. تتزوجينه مرضاة لأختك لتحافظي على

عمارة بيتها، وتلملمين بناتها في حضنك.

ضربتُ الجدار بكلتا يديّ عدة مرات وأنا أردد:

لا أريد سماع هذا الكلام ولا أطيقه، لن أتزوجه ولو كان الثمن عمري أدفعه راضية.

كانت تشتمُ، وكنتُ أبكي وأقسمُ بأنه لو كان آخر الرجال فلن أتزوجه.

جذبتني من رأسي ، وكادت أن تقتلع شعري بيدها، غرست أسنانها كاملة في ذراعي وراحت تكيل لي اللكمات قالت من بين أسنانها :هل توجد بنت .. في القرية كلها قالت لأهلها لا ؟

خالك بكري وهو رجل طاوع أمه وتزوج من أرملة أخيه ليحافظ على صغاره وهي التي تكبره بثلاثة أعوام.. ضحى من أجل أخيه ،

أرضى أمه وترك عروسه التي تمنَّاها وفرح بموافقة أبيها .. ضحى بالفرحة الوحيدة ، لقلبه ، واستجاب لرغبة أمه وهو الرجل ، وليس أيسر عليه من قول ..لا

قلت بتحدي: أنا أقول ألف لا .. والله ألف ، ألف ..لا

قالت سأريك يا فاجرة .. رفعت وجهها للسماء ، وكشفت عن رأسها وراحت تكيل لي الدعوات المفجعات وقالت متوعدة :

لن ترين خيرا في حياتك مادام قلبي غاضبا عليك .. لن يرضى الله عنك

ألقيت بنفسي في ركن من أركان الغرفة ورحت أبكي وأهدر بحرقة ومرارة وكأن شقيقتي قد ماتت للتو.

فما كان منها إلا أن دخلت عليه غرفة الضيافة وقالت له:
يا ولدي دمعنا لم يجفْ ، وجرحنا لم يندملْ بعد، فامنحنا بعض الوقت.

(٢)
أنا لن أكون مثل بنات قريتي.. يسرن كالبهائم مضطهدات ،وذليلات ، ومهانات
ولن أكون كالخال بكري الذي فرِضت عليه زوجة أخيه وأبناءها وظل ثمانية أعوام في عزلة ، كانت زوجته ، زوجة أخيه سابقا" تشكو ابتعاده كانت تنهاه الجدة وتعنفه ، وترعبه بغضب الله عليه ، وتلومه كانت أمي فيقول : زوجة أخي
ظلل يردد زوجة أخي حتى قُتلت (أناه) ونبتت له تحت سياط الواجب المزعوم (أنا) جديدة وغريبة ، و بلا ذاكرة ؛ فضاجعها وأنجب منها ولدا معاقا ذهنيا ، ربما لكبر سنها .. أنظر إليه يضحك ببلاهة ، ويثور كمجنون ، ويسير كتائه في بلد غريب.. إنه يفنى بهدوء ، أو بالأحرى تُرك ليفنى في صمت عجيب .لن أكون مثله ،حتى وإن قتلت فلا بأس ، أموت مرة واحدة أفضل من أن أموت بالقطعة .

(٣)
في وقت السَّحر الكل ينامُ، وحده قلبي مستيقظٌ، دفتر يوسف في حضني، أقرأ منه بواسطة كشاف الهاتف المحمول.
ولأني أول ما سطرت سطور الحب
كتبت إليك
ولأني أول ما أحببت.

أول ما ناجيت أول ما غنيت
أول ما قدمت قرابيني واشتقت
كان الشوق إليك .

.....

تأخذني كلماته إلي حيث البعيد، هنالك فوق تلال القمر الفضية، أرطبُ القلب، وأبللُ الروح. إنه الحب، مؤتي الأغاني في الليالي، وفي القلب كالبرق يضيء ولا يحرق، يفجر في برية حياتنا اليابسة ربيعًا دائمًا، وينبوع فرح لا تشيخ نغماته ولا تجف،

أرقصُ حافية القدمين وأغني لك وحدك يوسف أغني.

أصبحت كلماته وسادتي الطرية التي أضعُ عليها رأسي المثقل بالهموم فيستريحُ،

فراشي الناعم، ومخبَئي الذي أستكينُ فيه، وألوذُ به.

في صباحاتي، ومساءاتي، ونهاراتي الطويلة المضجرة، أحسها وهي تسبحُ في دمي،

أسمعها همسًا في أذني بصوت يوسف، كلماته تزرعُ في القلب ألف حديقة ورد ، ألف حديقة فرح .

من أين يأتي بسحر الكلام حبيبي، من أي المدن الخرافية ؟

من أيّ الغابات المسحورة؟

يشدو بغناء قلبي يوسف، وبحديث روحي يتكلمُ، يا... ألف أحبه أنا!

تغفو العين قليلا، أما القلبُ فيبقى ساهرًا، يسبحُ في الفضاءات البعيدة،

يسافر بي إلى أودية بكر لم تطأها قدمٌ من قبلُ، ألتقي يوسف هناك بابتسامته الحانية، ونظرة عينه الدافئة ورائحته الجنونية، هناك نعيشُ

الحب بكل نزقه وجنونه، حيث لا عين تتلصصُ، ولا لسان يلذعُ، ولا نفوس تتوعدُ،

فقط أنا ويوسف والحب:

(كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت أن أجلسَ،

وثمرته حلوة لحلقي، حبيبي لي، وأنا له، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني).

* * *

أمي وجدَّتي، وزميلاتي في العمل، جميعهن أصبحن يشككن في سلامة سمعي، حيث بت أطلب من الذين يحدثونني أن يعيدوا على سمعي ما قالوه، زميلاتي يضحكن مني ويقلن:

من أخذ عقلك فليرده إليك أو ليهنأ به.

ويسألونني: ما بك؟

أقول: لا شيء، لا شيء.

وحين يجيء المساء، وينصبُ خيمته السمراء، المُرصعة بالنجوم الذهبية، وينامُ الجميع، أستل دفتره الوردي من تحت وسادتي، وأقرأُ من مختارته، أتذوقها، وقد اختلف طعمها ما بين قراءة، وقراءة.

.....

(في الليل وعلى فراشي، طلبتُ من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته،

إني أقومُ، وأطوفُ في المدينة، في الأسواق، في الشوارع، أطلبُ من تحبه نفسي،

أنا نائمةٌ وقلبي مُستيقظُ، صوت حبيبي قارعًا، افتحي لي يا حبيبتي، وتعالي لنخرج إلى الحقل، لنبيت في العري،

لننظر هل أزهر الكرم؟ هل نور الرمان؟!
هناك أعطيك حبي، قومي يا جميلتي، لأن الشتاء قد مضى، والمطر مر وزال، الزهور ظهرت في الأرض، وصوت اليمامة سمع في أرضنا، قومي يا حبيبتي، وتعالي في ستر المعاقل أريني وجهك، اسمعيني صوتك، لأن صوتك لطيف، ووجهك جميل،
أنا لحبيبي وإلي اشتياقه إلى أن يفج النهار، وتنهزم الظلال، شماله تحت رأسي،
ويمينه تعانقني، أحلفكن يا بنات ألا توقظن الحبيب حتى يشاء).

(٤)

أنا ويوسف نعشق الأشياء ذاتها ، كلانا يعشق صوت فيروزوعبد الحليم، ومحمد منير، وفريد، وقنديل، وصوت الست أم كلثوم.
كلانا يحب الشيخ الشعراوي والبابا شنودة، وابتهالات النقشبندي، وإنشاد الشيخ ياسين، وصوت المرحوم محمد رفعت، كلانا مغرم بفصل الشتاء، وإضافة النعناع الأخضر لكوب الشاي في العصاري والصباحات،
كلانا يفضل موسيقي عمار الشريعي وعمر خيرت، وعبد الوهاب.
كلانا يعشق رائحة المطر حيث تستحم الأشجار ويبتل التراب والحيطان
يحبني يوسف، مدللته أنا، في كل صباح، أستيقظ علي النغمة المخصصة للرسائل، يبعثُ لي بتحية الصباح،
يرسل لي وردة وكلمات حلوة، ينعتني بجميلتي، ، أميرتي، حُلوتي.
أقولُ له: سأحرم بعد زواجنا من تلك الرسائل، ومن وردة الصباح.
يقولُ: تستيقظين كل يوم ووردة حقيقية تلثمُ بنداها خدك.
أقولُ: كل يوم؟

يقولُ: كل يوم.

* * *

ليوسف فرحتي ميلاد، وبطاقتيّ هوية:

يوسف محمد السيد هريدي، الجنسية مصري، الديانة مسلم.

يوسف عماد زخاري، الجنسية مصري، الديانة مسيحي.

كلا البطاقتين تحمل نفس حروف الاسم الأول، يوسف، نفس الصورة، والجنسية، وبصمة اليد، وفصيلة الدم: وستقام لنا حفلتا زفاف بعد غدٍ.

قال لي يوسف سنحظى بحفلتي زفاف؛ فبعد خروجي من الكوافير سنتوجه إلي مسجد، سيد شهداء الجنة، الحسين بن فاطمة الزهراء، سنصلي ركعتين، وسألثم بشفتي ضريحه الطاهر، وأهمس بدعاء قلبي، بكل الأمنيات التي يحملها ذلك القلب، وسيعقد قراننا بين جنبات ضريحه، حيث رائحة المسك المميزة، وهمسات الأدعية من أفواه مرتعدة وقلوب ملؤها الرجاء، وأرواح عليلة ظمأى للوصال

سيشهدُ عقد قراننا عمه مصطفى، وولديه عاصم ورفعت، ثم نتوجه بعد ذلك إلى كنيسة العذراء بشبرا، سيقام لنا قداس كبير، وستقاد لنا الشموع، وتتصاعدُ رائحة البخور، تطيبُ الأرجاء كلها، والشمامسة يرنمون، والقسوس يباركوننا، وسيقودُ القداس خال يوسف: القس عازر راعي الكنيسة، وعند خروجنا سيلقون بأوراق الورد فوق رأسينا، بينما والدته، وخالته، وبناتها يزغردن والحضور، كل الحضور يباركنا.

ثم ننطلق إلي عشنا لنبدأ حياة طيبة، أحبك يا الله أرسلت لي يوسف ليكون لروحي طوق نجاة، هل حقًا سنبلغُ هذا الحلم؟ لا أدري!

سأكون مُطاردةً من كل أفراد عائلتي ..بعد هروبي الليلة.. ألطف بي يا رب

لم يتبقْ إلا ساعة، وينتصفُ الليلُ، ساعة ويأتي يوسف وابن خالته أبانوب يأتيان بعربة الأخير، ينتظراني شرقي القنطرة.
حيث الطريق الزراعي الذي تمر من خلاله المحاريث وعربات النقل المحملة بمحصول الذرة، وبعضها الآخر يحمل أقفاص الفلفل الأخضر وأقفاص الرمان والطماطم، وسبائط البلح، لتذهب إلى شادر المدينة، ويُسمى هذا الطريق – بالطريق الوسطاني – لأنه يتوسط الحقول، ويمتد مُتعرجًا حتى يصل إلي الطريق الأسفلتي الذي يمتد شمالًا حتى القاهرة.
تُرى هل سيكون الليل حليفي أم خصمي؟!
سريعًا يمر الوقت، ولكنه يتوقف للحظات عند رأسي، يقومُ بتلقيح المخاوف التي تهيمُ في هذا الرأس، فتلد ما يشبه الجنون.
ماذا لو كان الأمر كله خدعة؟، هل يمكن أن يخدعني يوسف؟!
ماذا لو خرج عليَّ ذئب من دغل القصب وقفز من الظلام على ظهري في حين غفلة مني؟!
ماذا لو أن أحد الخفراء اشتبه في وجود عربة أبانوب ويوسف وتوقفها في هذا الوقت المتأخر من الليل فوقف يرقبها؟! وشاهدني أقبل لأندس فيها؟
قطعًا سيطلقُ أعيرة نارية في عجلات السيارة وفوق رؤوسنا، وتستيقظُ كل القرية، وسيدركني أعمامي وقد يقتلونني.
قطعًا سيقتلونني وسيقتلون يوسف معي.
(٥)

ولماذا يقتل يوسف، أو أقتل أنا، ما ذنبنا ؟ ما نحن إلا تكملة لقصة بدأت فصولها قبل أن نوجد في هذه الحياة، موروث حملناه معا، جئنا إلى الدنيا فألفيناه، قُدر على من سبقنا، فأورثوه لنا.

القصة بدأت منذ أن تهور أب الآباء الساعي للخلود، وأكل من الشجرة المحرمة، فطرد من الجنة وهبط إلى الأرض، ومن نسله جاء محمد السيد هريدي والد يوسف، ومن نسله أيضًا، جاء ناروزعبد المسيح والد رحمة أم يوسف، ومن نسله جاء أبي فجئتُ أنا.

كان الجد ناروزنجارًا، يصلح البوابات، وهراوات الفؤوس، والطبالى والمقاعد الخشب، أنجبت له زوجته – رمانة – ولدين وبنتان، الولد الكبيرامتهن مهنة أبيه وصاريساعده، والأصغر، نذرته أمه للكنيسة.

قالت: ليكن قسيسًا تنحني له الرؤوس، يقبلون يديه ويلتمسون منه البركات، وعليه فكانت ترفضُ أن يمتهن أي مهنة، ليكتسب مُبكرًا الهيبة والتوقيروالاحترام.

كان الرزقُ قليلا، فما يأتي به ناروزلا يكفي الخبزالحاف، خاصة بعد أن ضعف نظره ،وكثرة إصابته بعد أن ضن البصرفبات قعيد الدارفكانت رمانة، تجمع البيض والحمام من نساء القرية، وتبيعه في سوق المدينة، وتأتي منه بمكسب لا بأس به، وكانت حين تمرضُ تنوبُ عنها مارثا الابنة الكبرى.

وبعد زواج مارثا، كانت رحمة الأصغرمنها، كانت قد دربت على نزول السوق وبيع البيض والحمام، وذلك عند تعب أمها أوعند سفرها لزيارة ابنتها مارثا في مصر.

كانت رحمةُ صبيةً لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، تجلسُ في السوق، في المكان المخصص لأمها، ترتدي جلبابًا أزرق وطرحةً من التل الأسود، تشفُ عن جيدها الأبيض الممتلئ وشعرها الكستنائي الناعم، كانت تبدو كفتيات الحواديت الفقيرات الجميلات اللائي يوقعن بأبناء الملوك في حبهن، تبتسمُ بود لمن يشتري منها الحمام، أسنانها في فمها نظيفة،

بيضاء، وعينيها مُكتحلة، وكان محمد هريدي بن السيد هريدي شقيق عمدة (الـ..... بشرق النيل) كان يمتطي جواده العربي البني، يطوفُ السوق، ويجمعُ الحمام وخادمه يتبعه، وقف بجواده أمامها، فرفعت عينيها، فنظر في تلك العينين وابتسم، فتسللت ابتسامته إلى داخل داخلها، وكانت لها طراوة القطيفة، وملمس الحرير، وطعم البرقوق ونكهة النعناع، وكانت نظرةُ عينها كسهم فرعوني اخترق فؤاده.

كان يرتدي جلبابًا سماوي اللون، مكويا، وعاطرا

أعطته الحمام وتناولت منه النقود، هو ابن ناس، قالت في نفسها أظافره نظيفة، وطراوة يده تشي بالعز، ورحمة أكثرما ترى فيمن تعاملهم من الناس أيديهم.

******

حمام الغيه يا حمامي – رماه الهوى يا أمَّا ورماني.

غنت رحمة بهمس دون أن يسمع أحد صوتها.

في المساء يرين السكون على النجع، تستريحُ النسوة من أعمال البيت، والرجالُ من أعمال الحقل، وأشجارُ السدروالنخيل يستريحون من حجارة الأولاد التي لا ترحمهما طوال النهار، تأوي رحمة إلى فراشها، فتتذكر ذلك الذي اشترى الحمام، وابتسم في عينيها، وألقى بشباكه، فاصطاد قلبها ومضى به، لا تعرفُ من أيّ القرى هو؟ كلهم يصبّون في المدينة لو كان من قريتها لعرفته.

عرفته لاحقًا ، قالت لها أم رمضان بائعة الجبن، قالت لها: ابن أكابر، جده كان عمدة في قريته، وعمه الآن هو العمدة

(٦)

احكم بالعدل يا قاضي قدامك مظاليم
بلَتونا الله يبليكم يا بيض يا قصيرين
قاضي الغرام هام بيكم نشكوكم طاب لمين ؟
لم ينم ، طوال الليل يتقلب في فراشه ، أينما يولِّ يجدْها أمامه ـ رحمة تلك البنت بائعة الحمام .. ثمرة ناضجة يشتهيها قلبه ، ولا ينفك عن التفكير فيها ، يستحضرها بخياله ..بنظرتها الدافئة وجفناها يتحركان ببطء يشعل ألف حريق بدمه، يذيب القلب ولو كان من حجر، وجيدها الأبيض الملكي يطوقه عقد من الخرز الخمري ، وطرحتها من التل الأسود تشف عن شعر بني حريري
وهذا الجسد الغض ، تكسوه طبقة من الجلد الأبيض بانعكاس وردي ، كأس من البلور يمتلئ بالشهد ، تتثنى في مشيتها كأنها أغنية تطفح بالنغم الدافئ الحلو ، كوكب من الفضة به ما به من الأنهار والأدغال ، والسحر ، والخمر ، والشهد والعطر.. الله يجازيك يا عشق .. الله يجازيك يا بنت .. أسراب من طيور الغواية ، طيور العشق تطلقها عيناك ، شفتاك القابضتان على أغنية الصبابة ، وتكاد أن تنفلت لتشعل النار في الأنهار المسالمة .. آه يا بنت من أين أتيت بكل هذا السحر؟
.من يطفئ النار في قلبي ، في عظامي وأوردتي ؟
****

أصبح محمد السيد هريدي – عاشقًا حتى الثمالة – لا يفوت سوق السبت دون رؤية – رحمة – وقد عرف القرية التي تنتمي إليها، والبيت الذي تقطنه، وصار يمرُكل يوم وقت العصر، يمرُبجواده من أمام بيتها، علّه يلمحها، وسرعان ما أصبحت العصاري موعدا للعاشقين، يمرُبجواده،

فتبتسمُ له من شباكها الصغير، حتى تمكن العشق من قلبيهما، ولم يكن أمامهما سوى الهرب والفرار بحبهما والزواج بعيدًا عن أعين أهلهما، إذ لن يوافقُ أحد من الأهل على مثل هذا الزواج،

. كان أبوه مصرا على زواجه من ابنة عمه ثريا بنت العمدة ، وحيدته التي سترث عن أبيها كل شيء

وكان الفتى يرفض وأبوه يهدده بالطرد ..في حال أصر على رفضه

إن إصابتها بالتوحد تجعلهم يخشون على البنت من الغرباء ، كل اللذين يتقدمون لخطبتها هم لا شك طامعون في ميراثها !

لم يكن أمامه مفر من الهروب برفقة تلك التي أحبها .

وعاشا معا في القاهرة، وأنجبا يوسف ومن قبله يسرا التي توفيت وهي في الثالثة من عمرها، وبعد فما ذنبنا أنا يوسف لنقتل، ما ذنبنا؟!

(٧)

انتصف الليلُ، حان وقت الرحيل، ينتابني شك بأن أكون نسيت أيًا من أوراقي، أفرغتُ محتويات حقيبتي وأعدتُ ترتيبها، صورة قديمة لأبي وصور إخوتي، خالد وعامر وسلامة والمرحومة أختي، صورة لأمي، رسائل يوسف ودفتره الوردي واللذان يحملان عطر يوسف، ومختارته

من حلو الكلام التي توشكُ أن تهترئ لكثرة قراءتي لها

شهادة ميلادي، وشهادة التخرج من معهد التمريض بسوهاج، ألف ومائتا جنيه ادخرتهم على مدار العام.

مرآة صغيرة، ومشط ، وزجاجة عطر، مسكنات، وضمادات، ومطهر للجروح، ودهان للشعر، ثلاثة أقلام ودفتر سأدون فيه كل ما سيحدث لي

مـن مواقـف وأحـداث .ودفتـر يوسـف الـذي يعني لي الكثير حـديقتي، ومضجعي، ونبعي الصافي الطهور ، وأغنيتي الحالمة الدافئة

أين بطاقتي الشخصية؟ بطاقة هويتي، تحمل اسمي، وصورتي، مهنتي، تاريخ مولدي، ديانتي، محل إقامتي، جنسيتي، فصيلة دمي، بصمتي، أين بطاقتي؟ هل يعبثُ الوقت معي؟!

أفرغت حقيبتي وأعدت ترتيبها المرة تلو الأخرى فلم أجدها هل نسيتها أثناء استلامي لراتبي الشهري، قبل أن أُجبرَ من قبل أمي على ترك العمل، نعم نسيتها، وناداني يومها موظف الخزينة، فعدت وأخذتها منه ثم وضعتها، وضعتها في الحقيبة القديمة، الملقاة فوق دولاب أمي، في الجيب الخلفي للحقيبة تذكرت الآن.

تسللت على أطراف أصابع قدمي، وكان علي أن أضئ نور الغرفة وكنت أخاف حد الموت أن تستيقظ أمي أو أخواى أو أيُّ من صغيرات أختي فجميعهم ينام في هذه الغرفة.

على السرير تنام الصغيرات، ملتحمات ببعضهن، كل منهن تلتمس في الأخرى الدفء والأمان، يختبئن تحت البطانية، لا يظهر منهن إلا قمم رؤوسهن، وعلى الأرض ينام أخواى، وقد اعتادا أن تفرش لهما أمي الحصير البلاستيكي، فوقه لحاف قديم، تغطيه بملاءة نظيفة، وعلى الدكة العتيقة المقابلة لجهة السرير ترقد أمي، وقد انزلقت طرحتها عن رأسها فكشفت عن ضفائرها الهزيلة التي خالطها الشيب.

فمها مطبقٌ على أوجاع كثيرة، اقتربتُ منها، قبلتُ بحذر قدميها وهششتُ بعوضة كانت تقفُ على جبهتها، تأملتُ مليًا ووجهها، أصبح العبوسُ محفورًا في ملامحه.

مسكينة أمي هي في صراع مستمر مع الموت والحياة، الحياة بقسوة أهلها، ومرارة عيشها، والموت الذي انتزع منها أهم الأشخاص، أغلى الناس، شقيقها الذي غرق في حادثة العبارة أثناء عودته من السعودية، وصغيرها الذي قضي عليه فيروس الحصبة، وزوجها رفيق دربها وسندها في الحياة وأخيرًا ابنتها، مسكينة أمي فقط لو تركتني وشأني لاكتفيت بعملي، وحبي ليوسف، وإعانتها على كفالة أبناء أختي، وما هربت، ولا حتى فكرت في ترك البيت قط.

تخيلت لحظة أن تكتشف هروبي، ستنوح وتبكي ستقول من بنت قلبي جاءت الطعنة، من بنت قلبي.

مسكينة أمي لكنها لم تترك ليّ أي خيار آخر، عندما قلت لها:

إن هناك من يريد أن يتقدم لخطبتي، فقدت صوابها تمامًا، لم تسألني عن اسمه أو ماهيته، قذفتني بكل ما طالته يداها.

منعتني من الذهاب إلى العمل، وألقت بهاتفي المحمول في نار الفرن وأخذ يحدثُ فرقعه وسط ذهولي.

ولولا أن قلق علي يوسف، فسأل عني نرجس، فأخبرته بدورها أني منقطعة عن العمل، ما جعله يزدادُ قلقًا فأرسلها لي وتحدثت إليه من هاتفها وانتهى حديثنا على هذا الموعد لولا ذلك لكانت زوَّجتني مكرهة بعد الغد، لزوج المرحومة أختي.

لم تتركِ ليّ أي خيار يا أمي.

امتدت يدي برفق فتناولت حقيبتي القديمة، واستلت يدي جلبابًا أسود وطرحةً سوداء من ملابس أمي، وتسللتُ بهدوء خارج الغرفة، وأطفأتُ نورها، وبحثتُ بلهفة في الجيب الخلفي للحقيبة، فوجدتها، وجدت بطاقة

هويتي، والتقطتُ أنفاسي، وحمدتُ الله ودعوته أيضًا أن يظللني بخيمة ستره، فلا يفتضح أمري، وتنتهي قصتي بنهاية تعسة ومفجعة.

* * *

الوقت الآن بعد الواحدة، تحسست بخطواتي الطريق إلى بوابة البيت الغارق في الظلام، في الحزن، في التعاسة، تمنيتُ أن أقبلَ البقرة بين عينيها، وأن أمسحَ علي رأسي الخروف وأمه، والعنزات الثلاث وصغارهن، وأن أضعَ للقطة الصغيرة لبنًا، وأن أعطيَ للكلبِ رغيفًا، لكني خفت أن توقظَ أصواتهم أي من أفراد أسرتي فتتحققُ الكارثة.

ولمَّا خطوت بقدمي خارج عتبة البيت، انقبضَ على الفور قلبي، وجف حلقي، سحبتُ الباب خلفي برفق، حتى لا يحدثُ صريرًا، مضيتُ والكلبُ في أعقابي، توقفتُ وربتُ على رقبته وهمستُ: عُدْ يا صغيري، سأكون بخير، وجودك معي سيجعلُ الكلابُ تشتبكُ معك وتحدثُ حولي جلبةً، أنا في غنى عنها، تظاهر بالطاعة ثم عاد وتبعني.

مددتُ الخطي، أتعثرُ في الظلام وفي جلباب أمي الواسع الطويل الناس غارقون في النوم، تتسللُ أنفاسهم عبر النوافذ الصغيرة والكوات الضيفة مُحملةً بآهات أوجاعهم، وهسهسة أحلامهم، وهمهمة ضمائرهم، ودفقات أمانيهم، ووطأة كوابيسهم، تنسابُ في شكل دوائر، وخطوط متعرجة، وكتل صغيرة ناعمة تسري كالأبخرة في الطرقات، وعلى أهداب النخيل، وأوراق النباتات وحين تلفحها شمس النهار تتكسرُ، وتتبخرُ، وتصعدُ للسماء، تغدو سحابة، تدمعُ في مكان ما، لماذا أبكي أنا الآن؟ لماذا؟ جففتُ عيني في طرحت أمي وتابعتُ المسير.

كنتُ أقتربُ من المنحدر الذي سأهبطه ببطء، ثم أسلكُ المدق الذي سيصلني إلى القنطرة، حيث ينتظرني يوسف.

وإذا بخطوات تجري خلفي، توشكُ أن تلحقَ بي، شعرتُ بشعر رأسي يقفُ، وكأن جسدي صار قطعةً من الخشب، هل أجري؟!
لا يمكنني أن أجري، ولم أقوَ على النظر إلى الخلف، يُوشكُ قلبي أن يتوقفَ تمامًا عن النبض، بالكاد أحركُ أقدامي للأمام، وأتوقعُ ما بين لحظةٍ وأخرى يداً ستمسكُ بي من رأسي.
وفجأة توقفت الأقدام اللاهثة، وسمعتُ طرقات على آخر باب في الشارع، وكان لأم رجب الداية.
أسرعتُ الخُطى وهبطتُ المنحدر، وسلكتُ المدق ولمّا اقتربت خطواتي من القنطرة، إذا بكشاف العربة يُضئ وينطفئ، تلفتُ حولي ثم انطلقتُ جريًا صوب العربة التي أدير محركها، وفتح بابها فور اقترابي، وبدوري اندفعتُ بداخلها سريعًا، وأغلقتُ بابها وهي تسري.
مررنا ببيوت ونجوع، وقرى لا نعرفها ولا تعرفنا، وشعرتُ بشيء من الأمان وأنا بجوار يوسف والذي بدوره، راح يمطريدي بالقبلات.

(٨)

تجاهلتُ مخاوفي، وتناسيتُ قلقي بمجرد أن رأيت يوسف، وتمنيتُ من الله أن يجعل هذين اليومين يمران على خير، ستكتملُ
سعادتي بالزواج من يوسف بعد أن أقومَ بإرسال صور الزفاف،
وصورة من قسيمة الزواج، بعدها سيستريح ضميري، وأبدأ حياتي بشكل طبيعي.
****

عبرنا الثلث الأخير من الليل، ببرودته وظلامه، أصبح الآن خلفنا، وكما تخلصت السماء من كتل الظلام، تخلص قلبي من كم كبير من الهم والحزن، وتخلصت نفسي من كثير من القلق والخوف.
أشرقتُ الشمسُ على يومٍ جديدٍ من أيام حياتي المُقبلة، وتألقت الحقول المستحمة بالندى، وكذلك أوراق الشجر.
***

عند وصولنا محافظة الجيزة، توقف أبانوب عن القيادة برغبة من يوسف الذي تولى هو القيادة، وأجلس أبانوب بجواره، واخترق شوارع المدينة، ثم توقف عند أحد الفنادق المقامة على ضفاف النيل.
وفي كافتيريا المطعم، أكلنا أرزًا، وكُفتةً، ودجاجًا مشويًا وسلطة خضراء، واحتسينا شايًا، وكانت شمس الظهيرة تلقي بحفنات من الذهب فوق سطح النيل فتضوي وتتلألأ، وكانت نسمة نوفمبرية تُداعبُ اوراق الشجر المصطف على ضفاف النيل، أمسك يوسف بيدي وساربي إلى كورنيش النيل، اقتطفَ وردة حمراء من حديقة الفندق وأهداها لي، تناولتها منه وقبَّلتها وبدوري أهديتها للنيل، فحملها فوق أمواجه ومضى مسرورًا، وظللنا نتبعها بأعيننا، وكانت الأمواج المتتابعة، تأخذها وتمضي بها حتى غابت عن ناظرينا.
قال يوسف: لو كان الأقدمون فعلوا مثلك، وألقوا بورود للنيل عوضًا، عن بناتهم لفرح النيل بالهدية، كفرحته هذي
لو سألوه:
يا حابي تأخذ البنت أم الوردة؟
سيقول: الوردة، البنت ستموتُ بعد دقيقة وتصيرُ جثة، ما حاجته لجثتها لو سألوه لأرادها أي البنت على قيد الحياة، تتبخترُ فوق حافته.

تُداعبُ النسمة ثوبها المزركش، وجدائلها السمراء ، تخشخش بخلخالها ، تحرك الماء بيدها و تملأُ قللها ،

يضحكُ البحر لها، فتغني البنت بدلال:

البحرُ بيضحك لي، وانا نازله أدلع وأملا القُلل.

ينتشي النيل لغناء الصبية، فترتفعُ أمواجه، تتأرجحُ القوارب، تعلو وتهبطُ، فتهمسُ النسمة، في أُذن النيل لتهدئ من نزقه:

يا بحرروق قدامها وأنا أفرجك على فستانها

يا بحرروق في ساعتها وأنا أفرجك على مشيتها

فيروقُ النيل ويهدأُ، لتواصل البنت الغناء:

البحرُ بيضحك لي، وأنا نازله أدلع وأملا القُلل.

ضحكتُ حتى دمعت عيناي، تحليل رائع لأغنية شعبية لطالما غنيتها مثل كل بنات قريتي، الآن تغيرت معانيها!

قلتُ أتعرفُ: عندما كنتُ صغيرةً؛ ولكثرة ما سمعته عن عرائس النيل، تكونت لدي فكرة أن النيلَ رجلٌ، رجل خارق اسمه النيل لديه مملكة هائلة يسري الماء فوق أقبيتها، ولطالما طفتُ بمخيلتي في حدائقها، وبين جنبات قصورها، وكنتُ أعتقدُ أن النيلَ ذلك الفتى لا يمر عليه الزمن لا يشيخُ، يتزوجُ كل عام، وكان يشغلني أمر هؤلاء اللائي تزوجهن على مدار الأعوام الطويلة الفائتة، وكان يقلقني مصيرهن، هل غرقن، أم ماذا؟

ضحكتُ ويوسف كثيرًا، وراح يحوطُ كتفي بذراعه، ويهمسُ: أنا لا أفعل مثله لن يكون لي سوى عروس واحدة، عروس عمري: مريم!

* * *

رجل أحلامي يوسف، كان طيفًا واهيًا يأتيني، لحظة يبلغُ بي اليأس والأسى مداه، حيث البيت الذي صار سقفه وأرضه وجدرانه تنضحُ، وتنزحُزنًا،

كم مرة هزت جدرانه الصرخات، صرخات الفقد والفجيعة، وامتلأ بالنسوة المتشحات بالسواد ؛ في وفاة جدي وأبي وخالي ، وأختي وأخي ..كم مرة ؟

كنت أذهبُ إلى عملي بالمستشفى الحكومي، مملوءة بالقذارة، والفوضى، ومزدحمة بالمرضى يأتون كل صباح من كل القرى المحيطة: لا تسمع سوى الأنين، الناتج عن الآمهم وأوجاعهم بؤساء، فقراء وتنهشُ أجسادهم الأمراض، ما بين طفل احترق جزء منه، وعامل سقط من فوق البناية التي يعملُ بها، وامرأة ثكلى، وأخرى استأُصل ثديها أورحمها، وجوه تُعتصر أمام عيني فيملؤني الأسى وأقولُ:

لماذا كل هذا الألم يا ربي؟ لماذا سمحت به ؟

حتى صارت حياتي مُوحشةً، يبست تربة قلبي وتشققت، وجفت فيه ينابيع الحلم والأغنيات، والأماني الحلوة، والأحلام المبهجة.

أنت الآن معي .. يدك بيدي ، لم تعدْ وهمًا أستجديه، ليأخذني إلى رحلة خيالية، للحظات، أفيقُ منها وأنا أكثر بؤسًا وغمًا!

الآن أنت حقيقة ملء القلب، والعين، والرأس، والعروق، حقيقة يدقُ لها قلبي، وينشغلُ بها عقلي، وتنبضُ بها عروقي، مُمتلئةً بك أنا حد النشوى، حد الجنون، حد الانفجار.

(٩)

توغلنا في الشوارع، شوارع المدينة المزدحمة بالعربات من كل فئة، والناس بكل طبقاتهم،

توقفنا عند محل للملابس الجاهزة، وكانت الملابس المعروضة مُلفتةً بأناقتها الشديدة وذوقها العالي، ابتاع لي يوسف ثوبا" رائعا" تفاحي اللون، ووشاح من الحرير السكري، بدوت مختلفة بالزي الجديد.

وضعت جلباب أمي الأسود في الكيس الذي فرغ من الزي الجديد، أثارت رائحة جلبابها شيئًا ما في قلبي فكدتُ أجهشُ بالبكاء.

تولَّى أبا نوب القيادة، وجلسَ يوسفُ بجواري، وأخرجَ من حقيبته الصغيرة منديلا" أزرق ، منقوش في أحد جوانبه قلب أحمر يخترقه سهم بداخل المنديل ورقة مطوية ، وكانت الحماسة بادية عليه قال: اقرئي.. قرأتُ.

عقد بقطعة أرض مساحتها، ثلاثمائة متر، موقعها شاطئ الأُبيض بمرسى مطروح، بجوار البحر، والعقد مناصفة باسم يوسف ومريم.

قال: هذه نسختك، مهرك يا عروس، ثم أردف: بقاؤنا في القاهرة سيكون مُؤقتًا، سنبني بيتنا في مطروح أرض ميعادنا يا مريم، أرض أحلامنا أرض صغارنا

سنقيمُ البيتَ، وحوله حديقة، نحوطه بسور حجري، تحفه الأشجار، أشجار فاكهة وورد، وكرمة عنب، وأرجوحة لصغارنا، السور الحجري، نطلوه باللون البرتقالي، ما رأيك؟ تتدلى عليه الأغصان الخضراء، فيتألقُ تحت وهج الشمس، وتصبحُ للأغصان الخضراء، بهجة غير عادية، نبني غرفة للأطفال وستكون باللون الأبيض، لون الفجر، وثياب العرس، وملابس الإحرام، وثياب الرهبان في الأعياد.

وأتخيل غرفتنا وردية دافئة بلون قلبك حبيبتي، ما رأيك؟

هنالك يمرحُ أطفالنا فوق رمال طرية، يستنشقون هواءً نقيًا، وأرضًا بكرًا يبنون عليها أحلام مستقبلهم بهدوء تام.

مطروح رحم نقي يلد الأخيار

قال بأنه أمضى مرحلة التجنيد في مطروح، ووقع في غرام تلالها وبحرها وشواطئها، وقال: إن شاطئ عجيبة هو معجزة، معجزة حقيقية.

قلتُ: هل خدمت في الجيش؟!

قال: نعم

قلت: ألست وحيد والدتك؟!

قال: لست وحيدًا، وهذا المغفل أخي، وأشار إلى أبانوب ثم افتعلا معركة وتبادلا اللكمات، وضحكنا وركبنا العربة الحمراء الصغيرة الخاصة بأبانوب، وانطلقنا إلي القاهرة، يحدونا الأمل في يوم طيب، وغد أفضل، وبدت القاهرة طيبة ، متواضعة ، ودافئة

أدار أبانوب الكاسيت الذي أعطاه له يوسف منذ قليل وانطلق صوت أم كلثوم يغني، وقد اتحد صوت يوسف بصوتها:

هل رأى الحب سُكارى مثلنا

كم بنينا من خيال حولنا

ومشينا في طريق" مقمرا" تسري الفرحة فيه قبلنا

وضحكنا ضحك طفلين معا" وعدونا فسبقنا ظلنا

* * *

من الجيزة إلى القاهرة، يتواصلُ حديث يوسف عن صديقه (سنوسي) ابن الحاج (علي ككاي) صاحب مزرعة النياق بقرية طن ضاربسيوة

يقول يوسف:

إن سنوسي توأمه مثل أبانوب، تمامًا وأن صداقته وسنوسي كانت فاتحة خير على كليهما وقد تعارفا وقت أن كان يوسف يقضي الخدمة العسكرية

في السلوم وقال: إن لتعارفهما قصة طويلة. وقال إنه سيرويها لي فيما بعد، وقال إن والد سنوسي صاحب الفضل،
في تلك الأرض التي نملكها الآن، والتي تعودُ في الأصل للحاج علي، الذي لم يبخلْ علينا بالثلاثمائة متر، بمجرد أن ألمحتَ له برغبتي في قطعة أرض قريبة من البحر، وقال إن سنوسي يعرفُ قصتنا وأنه أعد لنا عُشًا جميلًا قريب من البحر في الاسكندرية، لنمضي فيه أسبوعًا بعد الزفاف.
* * *

الفصل الرابع

(١)
في شارع الترعة البولاقية بشبرا، توقف أبانوب وترجل من سيارته.

قال: وصلنا حمدًا لله على السلامة.
شقة القس تقعُ في الطابق الثالث، تُطلُ على ميدان فكتوريا.
سبقنا أبانوب إلى أعلى.
قال لي يوسف: إن أمه تنتظرني، وأنه سيأتي ليأخذني في المساء، وأنه يُعدُ لي مفاجأة كبيرة، ثم قال إن عليه أن يذهبَ لاستقبال عمه مصطفى وولديه الذين جاءوا من الصعيد لحضور حفلة الزفاف.
انقبضَ قلبي، قلتُ: لا تتركني هنا وحدي ابق معي.
قال: أنا معك، فقط سأغيبُ ساعة واحدة، وستكونين برفقة أمي، وسترحبُ بك كثيرًا، وكذلك أسرة خالي القس عازر.
أعرف أن أمه لم تكن تُريدني زوجة له، كانت تأملُ أن يوافقَ يوسف على زواجه من كرستينا ابنة خاله معوض الذي توفي في العام الفائت.
تقول: ابنة خالك التي ترعاني في غيابك، خالك الذي لم يأبه بكلام الناس، كان يمسك بيدي ويدك، ويقول أختي وولدها، يقولها دون أن يغض الطرف، أو يطأطئ الرأس احترامه لنا، هو الذي أكسبنا احترام الجميع، وفي النهاية نكافؤه بكسر قلب ابنته، قالتها وبكت، بكت أملًا، وبكت غضبًا، وبكت استعطافًا، جربت كل أنواع البكاء.
لكن يوسف قال بحزم: أنت تريدين كرستينا زوجة لي وأم مريم تريد لها زوج شقيقتها ، وفي النهاية سنفعل ما فعلتماه أنت وأبي، سنفر بحبنا ونتزوجُ بعيدًا، فقبلتُ على مضض لهذا أخشى لقاءها.
قلت بإصرار: لن أصعد إلا برفقتك

(٢)

زوجة القس بيضاء، ترتدي جيبًا أسودَ يُخفي الركبة، وبلوزة مشجرة، ساقاها ممتلئتان، وكذلك ردفاها، شعرها أشقر يختلط باللون الفضي ، خفيف، وذقنها صغير، وأنفها دقيق، لكنها تبدو ودودة وطيبة، صافحتني وقد علَّقت على وجهها ابتسامةً قصيرةً، ودعتني للدخول.

في مدخل الشقة طرقة صغيرة بها أربعة كراسي من القطيفة الزرقاء ذات ورود ذهبية، خلعتُ حذائي، وكانت أرضُ الطرقة مُغطاة بسجادةٍ تتناسبُ ولون المقاعد، وكانت الطرقةُ تفضي إلى صالة واسعة.

وسأل يوسف عن والدته، فأشارت له زوجة القس للداخل، وغاب يوسف حوالي ربع ساعة، ولم تخرجْ أمه لتستقبلني، بل خرج بمفرده وكان وجهه منقبضا ، وسرعان ما عاد إلى الداخل حيث توجد أمه ، وكانت خطواته تشي بارتباكه الشديد

بكى قلبي فخفت وبكيت ...انحنيت برأسي فوق المنضدة الصغيرة خبَّأتها بين ذراعي واشتدت رغبتي في البكاء

اقتربت خطواته مني ، ربت على رأسي قال : لا تبكي

قلت: خائفة

قال : ممن .. مني ؟

لا أعرف .. لا أعرف .. أخرجني من هنا أرجوك .

طوَّق بكفيه وجهي فابتلت انامله بدمعي .. نظر في عيني وأطال النظر فيهما

تمنيت أن ألقي برأسي فوق كتفه وأن يلامس صدري صدره ، ليحتمي قلبي الخائف بقلبه

. قال وهو يجفف دمعي : ساعة واحدة وأعود ولن نفترق بعدها أبدا

****

.تركني ومضى، وما كان عليه أن يتركني وحدي، ما كان عليه أن يفعلَ، مرت الدقائق ثقيلةً مُربكةً، زوجة القس عادت تحملُ بين يديها صينية صغيرةً، حملتها زجاجة مياه معدنية وأخرى غازية، وضعتها أمامي وأشارت بيدها: تفضلي.

في الصالة كان القسُ يروح ويجيء، ويملي على أحدهم صياغة بطاقة تبرعات بصوت مسموع ، وكان من وقت لآخر ينظرُلي على أني نذير شؤم، وتعلل بانشغاله، هذا ولم تصدرْعنه كلمة ترحيب واحدة، وقد تجاهلني تمامًا.

أكتب يا مايكل :

(جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية، ٢٠ شارع جزيرة بدران بشبرا .

المحترم السيد .....

تحيةً وسلامًا

استلمنا مع مزيد من الشكر تبرعكم الذي تفضلتم بتقديمه والإله القدير أبو اليتامى

نسألُهُ أن يقبلَ تقدمتكم رائحة بخور زكية ويتولى مكافأتكم.

رئيس الجمعية القس عازر.)

***

امتلأ حلقي مرارة، وأدهشني أن يأتي بي يوسف لمكان مؤكد أنه يعرف تمامًا ما إذا كان سيرحب بي قاطنوه أم لا!

جاءت أم يوسف لاستقبالي وقد أنكرتني تمامًا، حتى تلك التي افتديتها بدمي ؛ أنكرتني صافحتني ببرود، فاقتربت لأقبلها، فأعطتني خدها على مضض وهمست في أذني: حسبتك أعقل من ذلك.

وبعد فترة صمت مشوبة بالضيق قالت:

لو كان ولدي يعنيك لما فعلت ذلك، أنت بتهورك، تعرضينه للهلاك، انهرتُ فوق المقعد، وتحجَّرت الكلمات في حلقي، فلم أنطق ولو بكلمة واحدة !

أجهشت بالبكاء وشعرت بأن السجادة التي أضع عليها قدماي الحافيتين، قد استحالت إلى حقل من الأشواك أخذت تنمو بجنون، تتسلق أقدامي، لتصل إلي بطني، وصدري وعنقي، شعرت بأني أختنقُ، أتمزقُ أموتُ، أين أنت يا يوسف، أين أنت؟ لتنقذ روحي، وتنزعُ هذه الأشواك من بدني؟ تركوني وحدي، القس وأم يوسف، وبعد قليل جاءت ابنة القس ماريانا، صافحتني دون ابتسام ودون كلام، كانت ترتدي بيجامة بنفسجية اللون، وكانت تجمعُ شعرها بمشبك يأخذُ شكل فراشة، وكان وجهها يشبه وجه أمها كثيرًا.

زوجة القس تذهبُ وتجئ، سألتني، إن كنتُ أريدُ طعامًا.

فقلتُ: لا ، جاءتني بكوب من الشاي، فوضعته جانبًا ولم أقربه.

وقالت: تذهبين إلي دورة المياه ؟

قلتُ: إذا ما سمحتِ.

في دورة المياه بكيتُ، بكيتُ وكتمتُ صوتي، وكاد أن يُغمي عليّ، وتمنيتُ العودة إلى أهلي ولكن كيف؟ لقد مضى أوان ذلك، فقد أقتلُ، أو أتزوجُ مُرغمةً، وهذا في أحسن الأحوال.

تملكتني روح اليأس، وشعرتُ بالمهانة والإحباط، وأخذت شموع الفرح والأمل، تنطفئ بداخلي تباعًا، وشعرتُ بحالة من الضيق الشديد بصدري، صرتُ أجاهدُ كي أوصل الهواء لذلك الصدر المكلوم.

دق جرس الباب فظننتُ أنه يوسف، غسلتُ وجهي لأزيل مظهر البكاء عن عيني وكامل وجهي، ولما خرجتُ لم أجد يوسف، بل شقيق زوجة القس (المقدس زكري)، ويعملُ شماسا في إحدى كنائس المطرية.

والمقدس زكري عيناه زرقاوان، وشعره قصير أبيض ووجهه يميلُ إلى الاحمرار، قال: إنه يُشاركُ في الرحلات التبشيرية، وأن الآلاف من أبناء القارة السوداء، ومن الهند ومن دول شرق أسيا عمومًا يكون خلاصهم علي يديه بحد قوله، وأنه يَتمُ تعميدهم فيصبحون مؤمنين.

وتحدث عن العمادة بشكل مُستفيض، وقال: إن الذين لا يعمدون هم نجس، ولأنهم لم يعمدوا فهم يرتكبون المعاصي، ويزرعون الشر في الأرض، وقال: إن يوحنا المعمداني، سُمي بالمعمداني؛ لأنه كان يُعمدُ الكبار والصغار في نهر الأردن، وهو أول من قام بهذا العمل، وتخيل عقلي كم النجاسة التي ألقيت في نهر الأردن، وأشفقتُ عليه.

وتابع السيد زكري قائلًا: إننا نولد نجس لأن أبانا آدم ارتكب الخطيئة، هل معنى ذلك أنني نجسة في نظر السيد زكري، أنا العذراء التي لم يمسسها بشر نجسة؟ يا لهول ما يقولُ؟!

وماذا عن الأنبياء الذين سبق ميلادهم يوحنا المعمداني، وهم أكثر من عشرين نبيًا؟ ألم يكونوا أطهارًا هم ومن آمن برسالتهم، وتبعهم من الناس، عندما ولدت العذراءُ، وهي أطهر نساء العالم، لم يكن يوحنا المعمداني ولد بعد!

لقد عوقب آدم نتيجة خطيئته، وطُرد هو وزوجه من الجنة، وكانا وحيدين بائسين، يبكيان ندمًا، بكيا كثيرًا خروجهما من الجنة، ثم بكيا بعد ذلك، عندما قتل أحد ابنيهما الآخر.

نحن نرتكبُ الشرور لأننا ببساطة، أبناء قابيل، قاتل أخيه.

قتل أخاه ليأخذ ما ليس له، قُتل الصالح المُتسامح، الراضي بحكم الله وبعدله، وبقي القاتلُ العاصي،

المُتمردُ على حكم الله، ووالديه.

نحن أبناؤه ومن سلالته؛ لهذا نرتكبُ الشر، أو بعضنا يفعلُ.
مسلمون ومسيحيون ويهود، وغير متدينين، مع ذلك فأظن بأننا نولد أبرياء، ونبقى لبعض الوقت أبرياء.
ملأ عينه من وجهي ثم أصلح صوته وقال : لن تقبل بك الكنيسة قبل أن تعمدي .
هممت أن أقول له : إنك مخطئ تماما" في فهمك للوضع . غير أني آثرت الصمت
في مقام الحسين وأمام المأذون سأقول ليوسف : زوجتك نفسي على سنة الله ورسوله
ويقول: قبلت .. وفي الكنيسة سيقول لي القس : تقبلينه زوجك في السراء والضراء كل العمر. وأقول : قبلت .. الشيء نفسه يفعله يوسف أمام القس والمأذون ..
كلانا سيقر في المسجد والكنيسة ، تحت عين الله ، وأمام الناس بأن كلانا يقبل بالآخر ويتعهد برعاية ، والوفاء له كل العمر.. يفرح بنا الأهل في أجواء طيبة مباركة ، لماذ الرجل يحمل الأمر فوق ما يحتمل ؟
******

خرجت أم يوسف من غرفة القس، وصافحت السيد زكري، وحرصت على ألا تنظر إليّ، وكأني غير موجودة، وقد أدهشني موقفها منيّ، وصدمني، وأحزنني، في الثالثة عصرًا خرج القسُ ووقف أمام صورة العذراء ليصلي وكانت زوجته وشقيقها وابنتها يصلّون معه.
قدوس الذي لا يموت، الذي ولد من العذراء، الذي صُلِبَ عنّا أرحمنا، المجدُ للأب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلي دهر الدهور آمين،

نسألك أيتها القديسة الممتلئة مجدًا، العذراء كل حين والدة الإله. أم المسيح، أصعدي صلواتنا لأبنك الحبيب.
السلام للتي ولدت لنا الإله آمين.
عند انتهاء الصلاة ذهبوا جميعًا إلي غرفة الصالون، وتركوني في الصالة وحدي، كانت صورة العذراء قبالتي.
تأملتها إذ تحنو على صغيرها، نظرتُ في عينيها الطيبتين فشملتني بحنانها، تحدثت إليها من دون صوت:
أنا مريم يا عذراء، عذراء يا مريم وللمصادفة فخاطبي يدعى يوسف،
رآك أبي في منامه فجر ولادة أمي لي، رأى فيما يرى النائم، رأى أنه يحملُ طفلةً، فإذا بك تمرين إلى جواره.
وتسألينه قائلةً: ما اسمها يا أحمد؟
قال: مريم، مريم يا عذراء.
ثم استيقظ وبقايا نوم في عينه، وبقايا الرؤيا في روحه.
استيقظ علي أنَّات أمِّي، كانت تتوجعُ من الآم المخاض، فانطلق من فوره، وجاء بأم رجب الداية، فدخلت على أمي وكسرت عودا من الكبريت، وألقته علي رأسها، وسخنت صاجًا، وألقيت عليه بحبات الكمون، لتسهيل عملية الولادة حسب ظنها، ثم أرقدت أمي وباعدت بين رجليها، وثنت ركبتيها، وجلست قبالتها، وراحت تتمتمُ ببعض الأدعية، فلما خرجت إلي نور الحياة، قال أبي: مريم، سأسميها مريم.
هذه أنا يا عذراء وحيدة غريبة، بعيدة عن أهلي وعائلتي وحزينة، هربتُ من لون الحزن القديم، للون آخر، هربتُ من رحلة شقاء وتعاسة كانت تنتظرني، إلى رحلة شقاء في مكان آخر لا أعرف إلام تنتهي.

لن أتزوج يوسف وأمه غيرراضية، ولن أعود لأهلي، إلى أين أذهب .. لا أين لي؟!

* * *

انتهزت فرصة بقائي ها هنا وحدي، وعاودت البكاء.. بكيتُ كما لم أبكِ من قبل، من دون أن أحدث صوتًا، بكيتُ حتى كاد قلبي المتضخم بالألم أن ينفجرَ، وكذلك رئتاي.

عليّ أن أرحلَ، وضعتُ حذائي في قدمي، وتسللتُ خارج الشقة ولا أعرف إلى أين أذهب سأمضي فحسب، أخرج من هذه الشقة المشحونة بالكراهية إلي أين لا أعرف سأذهب فحسب.

* * *

قررتُ العودة إلي أهلي، سأتحدثُ إلى التليفون الأرضي الخاص بعمي عن طريق الهاتف المحمول، أي هاتف محمول في أي من المحلات أو الأكشاك المنتشرة هنا، سأطلبُ من خالتي أن تبلغَ أمي بأني سأبيتُ الليلة بالمستشفى، وبأني قمتُ بتقديم طلب للعودة إلى عملي فتم قبوله، وبأني سأعود صباحًا، سوف ترتدُ لأمي روحها، وستلعنني كثيرًا، وستتوعدُ بوضع قفل من داخل البوابة، مفتاحه لا يفارقُ صدرها، قطعًا ستفعلُ، سأحاول إقناعها بالعدول عن قرارها بشأن زواجي من قاتل أختي، هو بالنسبة لي قاتل أختي وليس زوجها، إذا فشلت محاولاتي، سأنهي حياتي، أموت دفعة واحدة بدلا من أن أموت بالقطعة مع رجل لا أطيقه وبيت هو لأختي وليس لي !.

* * *

نادتني أم يوسف من خلفي، انتظري يا مريم، توقفت: وكانت علامات الخجل تبدو جلية على ملامحها كافة ، قالت دون أن تنظر إلي مباشرة

: أن يوسف سيصدم إذا عاد ولم يجدك.
لم أجبها. وظللت أتطلع إلى تاكسي ليذهب بي إلى محطة القطار.
كان صوتي قد احتجز تمامًا خلف جدار من الخيبة والهزيمة والإحساس بالقهر،
قالت بتردد ومن دون رغبة حقيقية: عودي معي.
فرفضت تمامًا وقلت: سأعود لأهلي.
وأوقفت تاكسي وقلت له: محطة رمسيس.
وتركتها على مكانها وركبت التاكسي ولم أنظر تجاهها قط،
لم يكن هناك داع للنظر إلى الخلف!!

(٣)

بجوار سلم المحطة كانت هناك أكشاك وكانت هنالك الهواتف المحمولة وكانت هناك لافتة صغيرة كتب عليها سعر دقيقة المحمول(خمسون قرشا") . غير أني خفت أن تفوتني فرصة سفر قريبة، كان يهمني ألا أصل متأخرة أكثر من اللازم، وصعدت، سلم المحطة وسألت موظف الاستعلامات عن مواعيد قطارات الصعيد، قال ليس قبل ساعتين، ثم أردف لو أتيت قبل قليل للحقتِ بقطار الخامسة، جلست فوق مقعد رخامي، وكانت ساعة المحطة تشير إلي السادسة والثلث.

* * *

قصور الأحلام التي صاغها لي يوسف من الجرانيت الوردي اللامع، تنهارُ الآن أمام عيني، تتساقطُ تباعًا فوق رأسي تدميه بقسوة، الحزنُ يزحفُ بثقله على كياني كله، لو أن لي مأوى ألوذ به بعيدًا عن أسرة يوسف

وأسرتي، لو أن لي ...، طأطأت رأسي بأسى، وتمنيت أن أنام في حجر جدتي، وقد عادت إليّ طفولتي.. بقلب وروح ونفس طفولية .

. عليَّ أن أبحث عن هاتف محمول لأخبر أمي بأني في المستشفى.

العرباتُ تمرقُ سريعًا، والأعمدة الكهربائية تنزفُ ضوءًا خافتًا، وكانت السياراتُ ترسلُ في عيني المتعبة ذلك الضوءَ يخترقها بحدة وبلا رحمة، والناس لا يعرفونني لهذا لم يسألني أحد: ما بك ؟ لِمَ أنت حزينة؟!

هل ضاع منك شيء؟ هل مات لك عزيز اليوم؟!

عدتُ أدراجي، هواءُ الليل يُشاكسُ ثيابي، جلستُ بعيدًا فوقَ مقعدٍ رخامي قاسي وبارد.

* * *

أفقتُ على صوته يلهثُ، جثا على ركبتيه أمامي،

وكان قد هاله مظهري المُروع، من أثر البكاء، راح يقبلُ كفي بلا هوادة ويعتذرُ..عشرات المرات يعتذرُ، لكني صممت على المغادرة،

حال يجئ قطار الصعيد، فنهض من فوره، وأقسم بأنه سيلقي بجسده تحت عجلات أول قطار يقدم، وأكد قائلًا: سترين ذلك بعينك يا مريم فلا تنسي أن تلملمي لحمي الذي سيلتصقُ بالقضبان ، كان جادًا في تهديده، صوته ، كل ملامح وجهه جادة، عدتُ أدراجي، ومضيتُ معه.

وكان أبانوب على بعد خطوات منّا ينتظرُ.

جلس يوسف بجواري، وكان مُقطبَ الوجه، فرك جبهته وحاول جاهدًا أن يملك زمام نفسه، وقد عقد يديه على صدره، وأسقط رأسه للوراء. دون أن ينبس أيُّ منَّا ببنت شفة، وكان وجهه ينّم عن نفسية سيئة. وكان من وقت لآخر ينظر إليّ.

ولم تكن الكلمات تسعفه لينطق بما هو بداخله.

(٤)

شقة أبانوب تقعُ في الدور الخامس، أمسك يوسف بيدي وارتقينا معا درجات السلم، وكان أبانوب قد سبقنا، وعند باب الشقة أحاط يوسف وجهي بكفيه وأماله وراح يقبلُ رأسي عدت مرات، وهمس في أذني:

سيكون كل شيء على ما يرام .

استقبلتني زوجة أبانوب بترحاب شديد عانقتني وقبلتني، وكانت شفتاها تفيضُ بعبارات الترحيب، وشعرت تجاهها بشيء من الألفة.

أخذتني من يدي وقالت: أعرفُ أنك تحتاجين الآن إلى حمام دافئ، ستكونين أفضلُ عندما تزيلين غبار الطريق عن جسدك.

وماذا عن غبار الحزن الذي يكسو القلب والنفس والروح ؟ قلتها من دون صوت ؟

عند خروجي من الحمام، كان الطعامُ ينتظرني، ورفض جميعهم تناول الطعام من دوني، جلستُ معهم، وأكلتُ بضع لقيمات، وكانت شهيتي مفقودة تمامًا، وفي غرفة الضيافة كانت هناك سيدة تنتظرني، كانت سمراء جبهتها لامعة، وروحها حاضرة، وكانت ممتلئة وخفيفة الظل.

قالت زوجة أبانوب مشيرة إلي السيدة:

هذه جارتي أم عصام، كانت قبل زواجها تعملُ في واحد من أهم وأميز كوافيرات البلد لديها يدان تلتفان في الحرير.

لم تكن تبالغ زوجة أبانوب في وصف المرأة، فقد كانت وبحق مبدعة، وماهرة ومتمكنة من أدواتها، خاصة في إزالة آثار البكاء وما أدى إليه من احمرار في عيني وأنفي، إضافة إلي انتفاخ أجفاني، كانت لديها حقيبة، تشبه صندوقًا سحريًا بدا صغيرًا من حيث الحجم، على أنه كان يستوعبُ

كل ما تحتاجه العروس من الحناء إلى مساحيق التجميل، وكل ما يلزم الشعر من تنعيم وتلوين وغيره.

كانت نقوشات الحناء على ظهر يدي جميلة، ومبهجة من حروف أسم يوسف شكلت ورودا

كانت يديها تعملُ بسرعة وإتقان في وجهي ثم شعري وأحضر ليّ يوسف ثوبًا من الشيفون ذهبي اللون محبوكًا عند الخصر، ومُطرزًا علي الكتفين والصدر مع حذاء لامع لا يخلو من حلية مذهبة.

عندما خرجت على يوسف بعد إتمام زينتي وملبسي، أطلق من فمه صفيرًا، فابتسمتُ وحتى قلبي ابتسم، وكذلك نفسي.

قال: انظري لنفسك، أنت ملكة فرعونية فاتنة.

وكان يوسف يرتدي بنطالًا أسود، وقميصًا حريريًا أبيض، وكان يضعُ جاكيت أسودا علي ذراعه.

كانت السماء ثرية بنجوم من الذهب تزينها لا حصر لها، وكان الهواء منعشًا رغم ميله إلي البرودة، كانت القاهرة، بمقاهيها، ومحلاتها التجارية، وجوامعها وكنائسها، ومساجدها المضاءة، وساكنيها، قد بدت متفهمة لخصوصية هذا العرس، وبدت أيضًا حنونة.

وكان أبانوب يدير كاسيت، للمطرب الشعبي متقال، وكان يوسف يردد مع (متقال)

: بص ع الحلاوة ... دي بلدي ونقاوه

قالت زوجة أبانوب من خلال ضحكها:

لأنك من الصعيد يا مريم، جاء لك بمطرب من الصعيد.

* * *

توقفت سيارة أبانوب قبالة كشك من الخشب يقع مباشرة علي ضفاف النيل،

يطلُ من نافذته رجل في ستينات العمر، أخرج يوسف من جيب سترته إيصالًا أحمر اللون

قدمه للرجل فأطلق الأخير صفارة،

قدم على أثرها مركبًا يتلألأ بالأضواء وكان بجوار الكشك سلمٌ يؤدي إلي النهر، كانت درجاته صغيرة. أمسك يوسف بيدي وهبطنا درجات السلم، كانت زوجة أبانوب خلفي تمسك بطرف فستاني، وترفعه قليلًا، كانت الأضواءُ التي تحف بالمركب، تنعكسُ علي وجه النيل فتجعله يبتسم وكان في صدر المركب مقعدان مميزان عن باقي المقاعد يكتسيان بالحرير الأحمر الناري، وقد خُصِصَا لنا أنا ويوسف، وعلى ظهر المركب فتيات وفتيان بملابس براقة ليحتفلا بنا، كانت الموسيقي والأغاني تصدحُ من مكبرات الصوت المثبَّتة في أطراف المركب الكبير بجوانبه الأربع كان المركبُ يتأرجحُ في سيره بنعومة على أنغام الموسيقى والفتية والفتيات يرقصون على إيقاع الموسيقى ويصفقون ويرددون الأغاني بفرح وحماس.

وأخرج يوسف من الجيب الكبير لسترته علبة من القطيفة الحمراء، وكان بها بعض الحلي، وأمسكت زوجة أبانوب بالعلبة، وراحت تعطي ليوسف قطعة وراء قطعة وكان بالعلبة دبلتان كَتب عليهما اسمينا، وطاقم من الذهب مكون من خاتم وسلسلة وسوار.

أحاط عنقي بالسلسلة الذهبية، تتدلي منها وردة في وسطها قلب صغير من العقيق الأحمر،

وطوق معصمي بسواريحملُ الشكل نفسه مجموعة متشابكة من الورود الذهبية تتوسطها قلوب من العقيق الأحمر.

ثم أخيرًا وضع الدبلة في إصبعي ومعها خاتم يحمل أيضًا شكل السلسلة والسوار،
وكان أبانوب يلتقطُ لنا الصور بالكاميرا الخاصة به،
وجاء دوري فأمسكت بكفه ووضعت الدبلة في إصبعه،
وزغردت البنات، وقام يوسف ورقص وأمسك بيدي، فنهضتُ ورقصتُ معه،
وشعرتُ بأني وبحق ملكة. وهذا عرشي يسبح فوق الماء، ماء النيل،
وتمنيت أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة
وأن يظل المركب يسبح علي أنغام الموسيقي ويوسف معي إلى ما لا نهاية.
****

سهرنا إلى ما بعد منتصف الليل،
عند عودتنا إلى شقة أبانوب، صليتُ وتوجهتُ لربي بكل جوارحي أن يُتِمَ فرحي ويلطفُ بأمي،
سأرسلُ لها صور هذه الليلة، ليلة الحناء والشبكة، وغدًا ستكونُ هناك صور بالثوب الأبيض والطرحة صور الزفاف،
دخلتُ إلى سريري، وكنت وزوجة أبانوب نبيتُ في غرفة الأطفال،
قالت: إنها حامل في شهرها الرابع وإنها إذا رزقت ببنت ستسميها مريم، وإن رزقت بصبي ستسميه يوسف،
ابتسمتُ وشكرتُ نبلها وكرم أخلاقها،
وأطفأتُ النور استعدادًا للنوم، قالت غدًا لدينا الكثيرلننجزه وعلينا النوم الآن.
دق الهاتف الأرضي في الصالة، فارتعب قلبي.

وقد أضحي مُفزَّعًا من كل صوت يأتي بشكل مفاجئ، قامت من فورها زوجة أبانوب لتجيب:

ألو

مساء النور يا أبونا

نشكر الرب على كل حال

نعم هنا معي ستبيتُ الليلة عندي.

لا.. يوسف في شقته مع عمه وأبناء عمه

نعم أبانوب سيبيتُ معه

نعم زفافهما غدًا

سلام يا أبونا... سلام

إحساسُ بالقلق بدأ يناوشني، اختبأتُ منه تحت الكوفرتا، وحاولتُ أن أتجاهله،

ورحتُ أستجدي النوم ليخلصني منه، وبعد أرق وقلق لا داعي لهما، جاءت طيور النوم، اختطفتني، وألقت بي في مملكتها السوداء الداكنة، لكن وفي أحد شوارعها المظلمة، اعترض طريقي القس ، كان معه أحد الشيوخ، جاءت أمي وبصحبتها زوج شقيقتي، كان هناك حشد من المستنكرين لفعلتي عيونهم غاضبةً، يمسكون بالحجارة في أيديهم، قال الشيخ:

تُرْجَمُ بلا شفقة، تُرْجَمُ حتى الموت.

قال القسُ: تُصْلَبُ وتُتْرَكُ لتأكل الغربان من رأسها.

قالت أمي: لا... لا تفعلوا، دعوها تعيشُ لتتزوج من زوج أختها لتربي الصغيرات !

كانت هناك أيدي غاضبة شدت وثاقي، وأخذوا يقتلعون شعري، ويدقون بدلًا منه مسامير صغيرة، وكانت الدماءُ تسيلُ غزيرةً علي جبهتي، وعيني ورقبتي، كانت أقدامي مُقيدةً، فلم أستطعْ الفرار، كانت حنجرتي بلا حبال صوتية، فلم أقوَ علي الصراخ لأستغيث كنتُ أحاولُ، كانت هناك يد تهزني برفق، ثم بقوة، فتحتُ عيني، قالت زوجة أبانوب وهي تمدُ ليّ زجاجة من الماء:

كنتِ حيال كابوس لهذا أيقظتك، ابتلعتُ جرعتين وأعطيتها الزجاجة، وشكرتها ولم أستطع بعدها النوم

* * *

قبل الفجر دق الباب بعنف، وهناك من ظل ضاغطًا علي زر جرس الباب من دون هوادة وبلا انقطاع، تملكنا الفزع، وقامت زوجة أبانوب بخطى مرتعدة وسألت بصوت مرتبك: من الطارق؟!

فأجاب بغلظة: أمن الدولة، افتحي قبل أن نحطم الباب.

جاسوا بأقدامهم كل أركان الشقة، وكنتُ أجلسُ على حافة السرير، وكأن أقدامي شُلّت، وكان قلبي يدقُ بعنفٍ ولا أدري كيف في اللحظة ذاتها جاء أبانوب؟!

قال أحدهم: أنت مريم؟!

هززت رأسي: نعم.

قال وهو يشير بيده: هيا أمامي.

قلت: أمهلني لحظة أبدل ثيابي.

قال بحزم: أسرعي.

ارتديتُ ملابس أمي، جلبابها وطرحتها، وخلعتُ الحلي من معصمي وعنقي، وأبقيت على (الدبلة) في أصبعي والتي تحمل حروف اسمينا أنا ويوسف

ودخلت عليّ زوجة أبانوب وفي يدها شالٌ، وكان بداخله ورقة أرسل بها يوسف إليّ.
قالت: في أذني إقرأيها واتركيها هنا لأتخلص منها.
قال يوسفُ في الورقة المكتوبة: أحدهم وشى بنا، ضباط أمن الدولة يدقون باب شقتي،
اهربي حبيبتي قبل أن يصلوا إليك، اذهبي إلى قرية (طن ضار) بسيوة
اسألي عن الحاج علي ككاي والد صديقي سنوسي،
انتظريني هناك سوف يقلك أبانوب بالعربة إلى موقف سيارات مرسى مطروح
عليك أن تسرعي قبل أن تداهمك عساكر أمن الدولة.
جاء تحذيرك متأخرا" يا يوسف .. فات آوانه
* * *
عند ركوبي العربة الخاصة بهم، وضعوا عصبة سوداء فوق عيني، كنت أسألهم وأنا أبكي وأشهق عن سبب القبض علي، وكان عسكري الحراسة يجيب: إشش ولا كلمة
ومضت العربة وكنتُ أتخبطُ بداخلها، وكانت أحلامي تتساقطُ مني،
وتبتعدُ بعيدًا، تبتعدُ في صحراء جافة تطمرها الرياح،
اقتادوني إلى مبنى رائحته مقبضة، ومضوا بي في طرقات ضيقة،
ثم رفعوا العصبة عن عيني، ودفعوا بي داخل حجرة ضيقةً ، مصباح يتدلى من السقف الواطئ الكالح
تفوحُ منها رائحة البول، وقد كانت في وسطها بقعة من البلل
أظنها بولا،يبدو أنها لن تجفَ قبل أيام،مع أن الغرفة ملحق بها حمام ؟!
بعد قليل فتح الباب مرة أخرى،

وألقي إلي ببطانية رثّةٍ، شنيعة الرائحة
سألت الذي ألقى إلي بالبطانية، سألته عن تهمتي قال وهو يغلق الباب:
عندما تقابلين الباشا في الصباح ستعرفين!
قلت : لا أستطيع أن أبقى هنا حتى الصباح
كنتُ في حالة من الذهول، شُلَّ بفعلها عقلي تمامًا.
تُرى هل تهمتي الشروع في الزواج؟ أم الهروب من بيت الأهل؟!
إذا كان القبضُ عليّ بتهمة الشروع في الزواج،
فسوف أقولُ للباشا الضابط: بأني راشدة،
وأستطيعُ تحمل مسئولية قراري بالزواج بمن اخترت
وإذا كانت تهمتي الهروب من بيت الأهل
فسأقولُ بأني اضطررتُ حتى لا أرغم علي الحياة مع شخصٍ لا أريده.
تُرى ما الذي يمكن أن يفعله بي الباشا غدًا؟
هل يمكنُ أن يفعلَ بي ما فعله رجال أمن الدولة مع جارتنا (رجاوات)؟
تستيقظُ ذكرى تلك الحادثة المرعبة في ذهني، كنا صغارا" نخاف أن نمر من امام بيتها ، بعد أن جنت ، نخاف أن تقتلنا
يا لتعاستي إن حدث.. كنت صغيرة استمع لكلام النسوة ، وأمتلأ رعبا"
كان زوجها عبد الرحمن البري سكرتيرًا في مدرسة القرية،
وحدثت مشادة كلامية بينه وبين ناظر المدرسة، لما كان عبد الرحمن ملتحيا فقد انتقم الأخير منه بأن ادعى :
أن عبد الرحمن نهى الأولاد عن تحية العلم في الصباح
ما دفع رجال الأمن للقبض عليه، وإلقائه بالسجن ومُورست كل صنوف التعذيب عليه
ليعترف ويقر بأسماء بقية الجماعة التي ينتمي إليها؛

ولمّا لم يكن لعبد الرحمن جماعة سوى صغاره وزوجته
فلم يدلِ بأي بشيء، فجاءوا بزوجته أمامه وقيدوها من الخلف،
وخيَّروه إما أن يعترفَ أو يُهتك عرضها أمامه،
ولكي يعلم بأنهم لا يعبثون معه؛ فقد قام أحدهم بشق ثيابها طوليًا،
من العنق حتى القدم وقد انتزعت طرحتها، وكُشف عن ثدييها، وسرتها،
وفخذيها،
وعورتها وسط صرخاتها الهستيرية، فما كان من عبد الرحمن سوى أن
ألقى عليها قسم الطلاق
أنت طالق .. طالق .. طالق
قالها وهو يبكي . وأداروجهه .. وأغمض عينه
.....
أصيبت رجاوات بانهيارعصبي، كانت لا تكفُ عن الصياح والهلوسة في
الكلام
وكانت تحملُ سكينًا وتحاولُ التسلل خارج البيت في الظلام،
فيعيدونها فتصرخ وتشتم، تريدُ السفر إلى القاهرة
لتقتل السيد زكي بدر وزير الداخلية، ظنًا منها أنه هو من أعطى الأمر
لفضحها وتعريتها وهتك عرضها،
وما كان من إخوتها الذكور سوى أن قاموا بسجنها داخل غرفة فوق
سطح المنزل
وكانوا يضعون لها أقراص المنوم في الطعام والماء كي تنام الليل والنهار
وتكف عن الهلوسة والصراخ.
ذات صباح وجدوها ميتة، منكمشة في أحد أركان الغرفة.

وبعدُ هل يمكنُ أن يفعلوا بي ما فعلوه برجاوات ؟ يشقون ثيابي ويأتون بيوسف ليشاهد عورتي، أتوقع شرًا وجبنًا كبيرًا

(٥)

أنا ويوسف حياتان مزجهما القدر، كل منّا يقطنُ في عمق روح الآخر،
كلانا معذب الآن، ليس للسجان قلب يصغي لأنَّات روحينا، لا، ليس للسجان قلب،
. تبللت طرحة أمي من جراء بكائي، المناديل في حقيبتي،
وحقيبتي في حوزتهم أخذوها مني قالوا: ستكون في الأمانات إلي حين خروجك،
فتح الباب وأُلقي إلي بطبق به بعض الفول، ورغيفين
ثم أغلق الباب ، لم أقربهما حتى عاد الشرطي، وأخذني لأقابل الباشا الضابط.
امتلأ قلبي بالحزن، ولكني أمضي بقامة مُنتصبة، أتقدمُ صوب الباشا،
وصوب مقصلة الحزن بقامة منتصبة، وقلب مكسور، ونفس ضائعة.
كان الباشا يتأرجحُ علي كرسي طري، أمامه مكتبه الفخم يلمعُ في الضوء
وقد وضع فوقه أوراقًا، وأكثر من تليفون أرضي، وعلبة شكولاتة، وعلبة مناديل،
ومنفضة سجائر، وزجاجة مياه معدنية، وكان يجلسُ علي مقربةٍ منه أحد معاونيه
وكان مكتبه أقل فخامة من مكتب الباشا ضابط أمن الدولة.
ظللتُ واقفة أمام الباشا، وهو يتأرجحُ وينفثُ دخان سيجارته
وقد حانت منه إشارة صوب الكرسي الفارغ

فجلستُ من فوري، وطار من رأسي كل الكلام، لم يبقَ في رأسي شيء أشار بيده لمعاونه ليستجوبني.

سألني عن اسمي رباعيا ، وبلدتي والمركز التابع لها، ومحافظتي ومهنتي، وتاريخ ميلادي وظروف عائلتي، من مات، ومن بقي وأسماءهم، وعملهم.

كان الباشا أصلعُ الرأس وردي البشرة، فمه رفيع وعيناه ضيقتان، كانت تبدو عليه النعمة ورغد العيش.

قال: ماذا تفعلين هنا في القاهرة؟

صمت ؛ ضرب بقوة طرف مكتبه

قلت: سأتزوج

قال: مِمَنْ ...؟!

قلت: يوسف

قال: هل وافق أهلك علي زواجك منه؟!

صمتٌ ....

صرخ: ردي يا بنت الـ.....

قال نيابة عني: هربت لتتزوجي به هنا.

أومأت برأسي إيجابًا.

قال: دين أمك أنت إيه؟

قلت: مسلمة.

قال: ودين أم الولد إيه؟

قلت: أمه مسيحية.

ضرب المكتب بيده الغليظة مرة أخرى فارتعدت أوصالي.

صاح في وجهي: دين أم الولد إيه؟

قلت: مسيحية، أمه مسيحية.

كوَّر يده وجزَّ على أسنانه، وأوشكَ أن يفتكَ بي، قلت ما أعرفه هو أن أمه مسيحية، أرثوذكسية.

قال الذي يُعاونه مُشفقًا عليه: أعصابك يا باشا، هي شكلها غبية.

ثم قال بحزم مُوجهًا سؤاله لي: الباشا يسألك عن ديانة الولد.. الولد الذي هربت معه

قلت: مسيحي مسلم.

قال الباشا: يعني إيه، ثم نظر إليّ المعاون وقال: يعني إيه ؟

ثم صرخ في وجهي، وقال يعني إيه؟ ثم ضرب على مكتبه وقال:

يعني أيه يا بنت الـ.....؟!

عاد المعاون الذي يكتبُ ما أقوله وهدأ الباشا.

وقال لي: الله يخرب بيت غبائك، ثم قال:

هل كان مُسلمًا وتنصر أم مسيحي وأسلم؟

ثم أضاف: أظن السؤال لا يحتاج عبقرية.

قلت: لم يكن مسيحيا وأسلم ولا مسلما وتنصر، هو مسيحي مسلم، أبوه مُسلم وأمه مسيحية، على ساعده صليب وعلى جبهته زيتونة الصلاة.

ضحك الباشا ساخرًا، وضرب كفًا بكف، ثم أخذَ يلعنُ ويسبُ ويشتمُ.

قال: القسُ معه حق، أنتم وأمثالكم تريدون تمزيق هذا البلد، تمزيق خيمته لنبيت جميعًا في العراء

تتآمرون على أمنه ووحدة صفه، لا تريدون لهذا البلد أن ينعمَ بالهدوء والسلام، يا أولاد الكلب، يا حثاله.

تكونت بداخلي ضحكة بطعم الحنظل، وبحجم غابة كبرى لولا جبل الحزن الذي يطبقُ علي صدري

لانطلقت هذه الضحكة، واهتز هذا المبنى، ولسقط الباشا من فوق كرسيه على فمه
أو على مؤخرته الكبيرة هذي
زواجنا يعكر الصفو؟ حبنا يمزق الصف ؟ أي وطن هذا الذي تهزمه المحبة، وتمزقه ؟
أي وطن هذا الذي يُسجنُ أبناؤه بتهمة الشروع في الزواج ؟

(٦)
لليوم الثالث احتجز داخل هذا الجُحر النتن، البارد، البائس
أخذوني مرة أخرى لمقابلة الباشا ضابط أمن الدولة.
كنتُ شاخصة بأساي إلى وجهه المتحفز غير الودود،
كان يبارزني بكلام حاد، وكنتُ أبارزه بالسكوت، وأغضُ السمعَ عن سعير أسئلته ، وشتائمه البذيئة
مط شفتيه ساخرًا مني، أخرج من درج مكتبه بطاقة يوسف،
وأخذ يهزها في وجهي ويُردد ساخرًا: يوسف عماد زخاري الجنسية مصري، الديانة مسيحي، تقدمَ إلى السفارة الأمريكية لطلب الهجرة لدواعي أمنية مسيحي أحبته مُسلمةً، ومهدد بالقتل من قبل أهلها، شخصية كنسية كبيرة
أعدت له طلب الهجرة إلى أمريكا، وسوف يحصلُ قريبًا على تأشيرة سفر
كنتِ فخًا، طُعمًا، كانت تمثيلية يا بنت الغبية
يا لهولي، غاص الخبر بوحشية في عذاباتي، في أحشائي الموجوعة، كأنه سكينًا سامًا.

غامت الدنيا من حولي فنظرت إلى الضابط ، كنت أشهق وأمسح عيني وانفي بظهر كفي مثل طفلة تائهة في مولد كبير
تبددت ملامح ضابط أمن الدولة قرب مني عبوة المناديل خاصته وحاول تهدئتي
قال بود :الحياة تجارب ، أعرف ان تلك التجربة التي تمرين بها قاسية ، لكننا نتعلم أكثر، من التجارب التي تترك علامة بداخلنا فلا ننساها أبدا"
ثم أردف : سوف نؤمن وصولك إلى بيتك
وقبل أن أغادر الباب قال الضابط وكأنه تدارك شيئ هام : المفترض أن يتم ترحيلك إلى أقرب قسم شرطة من إقامتك ؛ لكن وحرصا" على سمعتك لم أفعل
لم أفهم شيء.. دوامة كبرى تعصف بي.
أعادني الشرطي إلى الحجرة التي يتم احتجازي فيها ، أتعثرُ في خيباتي، أمشي في طرقات يكسوها الجمر،
كل شيء ينهار، أخذتُ أردد بذهول أمريكا.. أمريكا.. فخ..؟ طعم ..؟ تمثيلية.. أمريكا..؟
*****
أخرجوني عصر اليوم، ومضى الشرطي أمامي بحذائه الثقيل وخطواته المنضبطة
عند دخولي مكتب الباشا الضابط، فوجئت بعمي يجلسُ قبالة الضابط اتسعت حدقة عينيه لما رآني، وكان شاحبًا وغاضبًا مقطب الوجه متوتر الأعصاب
كان الهمُ يُغلفُ هيأته بالكامل، اقشعرَ بدني حين رأيته،

وقلبي المذعور أخذَ يضربُ بجناحيه داخل قفصه الكائن بصدري، يريدُ الفرارولا يستطيعُ.

وقع عمي على إقرارمفاده عدم التعرض لي بالقتل، وتحمله المسئولية كاملة عن سلامتي.

كنتُ أعرفُ، وكان ضابط أمن الدولة يعرفُ، أن ذلك إجراء روتيني،

وأنه ليس ثمة أمل في النجاة من الموت الذي ينتظرني.

جاءوا بحقيبتي من الأمانات وأعطوها لي، ومضيت برفقة عمي،

مضيت برفقة المكلف بقتلي.

كانت شمس الغروب تنزفُ ضوءًا باهتًا

وكان هواءُ ديسمبريُشاكسُ جبة عمي السوداء

وكان لا يدعني أمضي خلفه، خشية أن أفر بعمري هاربةً منه ،

لذلك كان يمضي بمحازاتي بعين يقظة،

هممتُ بأن أشرحَ له حقيقة الأمر، لكنه قاطعني بحدةٍ وبحركةٍ مُتشنجةٍ من يده

وقال من جانب فمه:

الله يلعنك لا تسمعيني صوتك، أشار بيده فاستوقفَ سيارة أجرة،

وقال للسائق من خلال تأوهه: رمسيس.

تتصاعدُ رائحة المعسل ونكهة الشاي المنعنع الطازج، ويُسمعُ كركرة النرجيلة وسعال البعض،

وقهقهة البعض الآخر، من المقهى الكائن فوق الرصيف

كانت الحشودُ كثيرةً، تنتظرُالقطارفوق الرصيف ، بينهم رجل يرقبني وعمي ويحرص كل الحرص على ألا نغيب عن عينه !

ومثل تنينا" اسطوريا" جاء من مخزنه على مهلٍ، غير أن صوته كان يزلزلُ المحطة

تأهب الركابُ واقتربوا، وقد انطلقَ صوتُ مذيعة المحطة: تُعلنُ عن وصول قطار الصعيد،

وتنوه عن رقم الرصيف الذي يقفُ عنده القطار، تدافعَ الناسُ بمجرد أن توقفَ القطار، بالكاد وجدنا مقعدًا، وكان يقعُ قُبالة باب القطار المنخلع.

أرض القطار غير نظيفة بالمرة، تمتلئ بقشر البيض واللب والفول السوداني، وأغلفة الحلوى واللبان.

قال أحدهم وهو يشقُ الجموع باحثًا عن مقعدٍ خَالٍ:

قطر الغلابة زحمة .. ديما" زحمة..أصل الغلابة كتير.

الرجل الذي يجلسُ في المقعد الموازي لنا، يقذفُ اللب داخل فمه الواسع يمضغه بقشره، ثم يبصقُ القشر بعد طحنه بأسنانه، كل

ملامح وجهه مُتحفزةً للعراك، يقولُ بِصَوتٍ عَالٍ:

النسوان بنات قحبة، معاك فلوس: يا حبيبي يا نوورعيني، معاكش فلوس عرقك عما عيني.

يضحكُ الرجال، ويضربون كفًا بكف.

****

الباعةُ الجائلون ينادون عن بضاعتهم،

صحف ومجلات وكتيبات في الدين والأدب والسحر وعلم الأبراج

وآخرون يبيعون سلاسل وساعات، سبح وقصافات أظافر وولاعات،

ملابس أطفال وملافع للرجال، ميداليات وحافظات نقود،

مياه معدنية ومياه غازية، حلوى وساندوتشات، بقصمات، وبسكويت وشاي

غرباء كل من في القطار، غرباء يتعارفون يثيرون قضايا
يتحدثون عن مشاكل الأرض، وارتفاع أسعار السماد
ومواد البناء مشاكل التعليم وزواج الأبناء مع قلة الدخل،
وضيق الرزق يستقطبُ الحديث مزيدًا من الركاب كل يُدلي بدلوه.
ويدلي بشهادته وفي النهاية يدينون الحكومة، ويقولون: إنها بنت كلب،
ويلعنون مبارك وولديه وحكومته، البعض راح يُحذرُمن أن يكون بالقطار
مخبرون تابعين لأمن الدولة مُتنكرين في صفة ركاب، ويقبضون عليهم في أقرب محطة، كثيرون خافوا والتزموا الصمت، والبعض الآخر ازداد حنقًا وتمادى في السب واللعن.
أطفال صغار بملابس رثة متسخة، ووجوه بائسة يبيعون عبوات المناديل وأكياس الترمس والحمص وحلوى النعناع.
يُشيرُ أحد الركاب إلي البنت الصغيرة النحيلة التي تبيعُ أكياس الحمص وتربطُ منديلها خلف قفاها،
يقولُ من المفترض أن تكونَ هذه الصغيرة في بيتها تستذكر دروسها،
أو تلعب بعروستها، يتأملون البنت، ويمصمصون شفاههم،
ويشترون ما بحوزتها من أكياس الحمص.

(٧)

الليلُ يخترقُ عربات القطار، وكانت العربةُ التي جلست بها مُظلمةً، وكان عمي قد أجلسني بجوار الشباك، وجلس بجانبي، وكان يضعُ رأسه بأسى فوق راحته الممسكة بعكازه، وكان من آن لآخر يُطلقُ آهةً حارة فأمتلئ بالخجل.

أتأملُ السماءُ من نافذة القطار، أيمكن أن أكون مخطئة؟ أعطيتني يا رب حق الاختيار فسلبوني إياه فهل أنا مخطئة؟!

. لا أظن بأني مخطئة .. ولا أظن أنّي قديسة بتول

أنا مجرد عذراء مثل ملايين العذارى، مجرد عذراء سماها أبوها مريم.

من فتحة باب القطار المنخلع، تتدفقُ كتلةُ من الهواء البارد المميت، تخترقُ عظامي بلا رحمة، وتجعلني أرتعدُ، لا شيء يصدُ هذه الكتل الهوائية، تدحرجت زجاجة ماء واستقرت تحت قدمي، وكان بها قليل من الماء، شربتُ ما فيها، وكنتُ لم أتذوق الماء منذ يومين.

توقف القطارُ بإحدى المحطات، استأذنت عمي ليسمح لي بالمرور لدخول المرحاض

فضرب أرض القطار بقعر عكازه علامة علي الرفض، فجلست من فوري .

. في الركن الأيمن من عربة القطار، انطلق صوت الشيخ العجوز ينشدُ مُبتهلا، وقد تفاعل معه الركاب وراحوا يرددون خلفه.

يا الله يا الله

يا عالم كل العلوم

يا سامع دعا المظلوم

يا الله يا الله

لا تترك في مجلسنا شقيًا ولا محروم

لا تترك في مجلسنا محزونًا ولا مهموم.

ظل الشيخُ ينشدُ بالدعوات، وقد اشتعلَ حماسه وراح يرتجلُ وهم خلفه يرددون ويصفقون ويستزيدونه.

في صوت الشيخ شيء يشبه المعجزة، فهو يأخذك من عالمك الداخلي المظلم الموحش
الذي أنت عالق به، ويجعلك تستنهضُ قواك لتسعفك، وتأخذُ بيدك من هذا الكابوس المهلك الذي تم استدراجك إليه من قبل نفسك المتآمرة مع الشيطان عليك.

* * *

الركابُ يتدثرون بالعباءات "والملافع والشيلان" اتقاء لبرد منتصف الليل.
في كل محطة يتوقفُ فيها القطار، تغادرُوجوه وتأتي وجوه، باعة يهبطون وآخرون يصعدون، والقطاريحملُ الجميع، ويستمرُفي سيره لا يعبأ بمن صعد ومن هبط، من جاء ومن رحل، وكلما تقدم يخفقُ قلبي وتضربني عاصفة من القلق الهائل، وآلاف الأسئلة والتكهنات، تخربش بأظافرها عقلي، كلما تقدم القطار، تقدم الموت منى خطوات وخطوات.
تتخيل نفسي صورا شتَّى لعملية القتل التي ستزهق بفعلها روحي.
هل سيُحطمُ رأسي بعكازه ؟ أم يخنقني بملفعته الصوفية تلك ؟ أم يقيدني ويلقي بي في ترعة قريتنا ؟

* * *

الناس في القطارراحوا يتثاءبون ، تتمايل أجسادهم ، وقد سقطت رؤوسهم للأمام ، واستندت ذقونهم على صدورهم
والباعة الجائلون يرفعون أصواتهم، وكأنهم في معركة من النعاس، يلقون ببضاعتهم في حجور الركاب، ثم يعودون بعد ذلك، والركاب بدورهم يقلبون ما ألقي إليهم من أشياء، منهم من تروق له فيبتاعها ومنهم من يردها.

أحد الباعة ويبدو أنه كان في عجلة من أمره أخذ يلقي ببضاعته سريعًا في حجور الركاب، وكانت أكياسًا مغلفة من البلاستيك الشفاف تحتوي على ولاعة وقصافة ومقص صغيروأربع حجارة صغيرة ونظرًا لتعجله، لم يصوب بدقة في حجرعمي، فبالكاد لامست جبته وسقطت أرضًا، ولأن كليهما كان مشغولا ونظرًا للظلام الذي يسود العربة، فلم ينتبه لسقوطها، فقد ركلتها الأقدام وانزوت، إذ لعلها سقطت من فتحة الباب.

توقف القطارفي غيرمحطته، بعض الركاب قال: لعل أحد الباعة عبث بالفرامل، والبعض الآخر أفتى بأن هناك قطارا قادما من الجهة الأخرى وبعضهم قال: ربما يكون عطلًا في القطار.

عاد البائع وطلب ثمن ما حصل عليه من بضاعة، فقال له عمي بأنه لم يأخذْ منه شيئًا فأصر البائع وحدثت مشادة كلامية بينهما، ولأن عمي في حالة مزاجية سيئة للغاية، فقد استشاط غضبًا وضرب البائع علي رأسه بالعكاز، فسقط الأخيرأرضًا، وتجمع الباعة علينا لينالوا من عمي، وتجمع الناس ليفضوا المعركة واختفى عمي بين هؤلاء وأولئك وبدأ القطارُيتحركُ، جلستُ القرفصاء ومررتُ سريعًا بجوار أرجلهم وقفزتُ من باب القطار، قبل أن يُسرعَ

الفصل الخامس

(١)

تخطيتُ القضبان الواحد تلو الآخر، وكان هنالك طريق أسفلتي، يمتدُ بمحاذاة ترعة كبيرة، تحفُ بها الأشجار، انطلقتُ عدوًا، ولم أنظرْ إلي الخلف مُطلقًا، وكانت أقدامي تنهبُ الطريق نهبًا، وكانت على بعد عدة أمتار قنطرة، وعلى الجانب الآخر للقنطرة مقابر، يحوطها سور حجري واطئ، تتوسطُ المقابر قُبةً لضريح أحد الأولياء، وكان هناك ضوءٌ شحيحٌ يبدو من زجاج كوة صغيرة في أحد جوانب القبة، تسلقتُ السور الحجري، وجريت بين المقابر، واختبأت داخل الضريح، وكان بابه مُواربًا، كان المقامُ عاطرًا ويلتفُ الضريحُ بالحرير الأخضر والعمامة الخضراء، وتُضاءُ جوانبه بزجاجات، تأخذُ شكل شموع، ويتغذى فتيلها المشتعل من الزيت.

جلستُ في أحد الأركان، وكان قلبي يدقُ بشدةٍ، وكنتُ ألهثُ لو التقاني عمي بعد أن هربتَ منه، فسوف يُحطمُ رأسي بعكازه الغليظ.

وضعتُ رأسي بين ركبتي، ورحتُ أبكي وأشهقُ، هناك من نفخ في الشموع فانطفأت تباعًا، عندما رفعتُ رأسي كان المكانُ قد أظلم تمامًا لا أدري من أطفأ الشموع أنسي أم جنبي أخاف كلاهما.

شعرتُ بصفير في أذني، يخترقُ جمجمتي مُحدثًا بها ألمًا مُروعًا، أمسكتُ بأذني وكتمتُ صرختي، وقد سرت قشعريرةُ هائلةٌ في كامل بدني، توقف على أثرها شعر رأسي، وتوقعتُ أن هناك يدًا تمتد نحوي في الظلام لتؤذيني، هل بإمكان صاحب هذا المقام أن يحميني؟

وماذا يفعل صاحب المقام الطيب حيال مكروشر ذلك الجني أو الأنسي الشرير؟!

عجزتُ عن الوقوف على أقدامي، فحبوتُ وخرجتُ من الباب، ثم نهضتُ وعاودتُ الجري، وعُدْتُ أدراجي حتى القنطرة، وسلكتُ الطريق الزراعي حيث الحقول كانت هناك.

وكانت هناك حديقة ونخلتان توأمان، إحداهما تستندُ إلى جدار تلك الحديقة، تسلقتُ النخلة وألقيتُ بنفسي داخل هذه الحديقة، كانت أشجارُهَا يَابسةً مُتشابكة الأغصان، كأنها أسلاك شائكة، علق طرف عباءتي بأحد أغصانها، وكذلك حقيبة يدي.

نزعتُ طرف عباءتي، فتمزقَ وكانت الأغصانُ قد تمكنت منها، ومددتُ يدي لأستخلص الحقيبة.. ففوجئت بأحد الثعابين يفتحُ فمه، وكان يلتوى على ذات الغصن الذي علقتُ به حقيبتي، كان الضوءُ المرسل من النجوم ضنينا، والقمر عجوزًا تأكلُ الظلمة ثلثيه يتلكأ في سيره فتركتها، وتراجعتُ إلى أن يأتي الصبح، وكانت هناك أريكة فقدت بعض ألواحها الخشبية،

جلستُ القرفصاء على مقربةٍ منها لأبول، وكنت أتألمُ بشدةٍ، وشعرتُ بحوض الماء يكادُ أن يتمزقَ.

. الخوف كان كلمة .. كان ..الآن هو حالة أعيشها ... أعيش لحظاتها الطويلة ، المروعة ..قشعريرة البدن ، والدم الذي يندفع من قلبي لرأسي أو ربما العكس لا أدري ورأسي الذي ينتفض رعبا ، وقد شعرت بأن كل شعرة فيه صارت بيضاء

****

جلستُ فوق الأريكة، وكنتُ مُتعبةً حد الهلاك، وما إن جلست حتى شعرت بها ترتفعُ بي ثم تهبطُ، فظننتُ أن ذلك من تأثير القطار غير أنها عاودت الصعود والهبوط، وكان يصدرُ عنها صريرًا، فقفزتُ على أقدامي ووقفتُ مبهوتةً، وفجأة ظهرت دوامة يركبها جني لا أعرف إن كانت تلك الدوامة من دخان أو تراب أو رمال أو رماد ؟ لا أعرف

كان الجنيُّ يُحاصرني، يُريدُ أن يلمسني، وكنتُ أتراجعُ، وكانت هناك ساقية تديرها امرأة، شعرها غصن من الأشواك الجافة المملوءة بالثعابين الصغيرة، وكانت عيناها جمرتين من النار، وكانت تتلفعُ بثدييها ويتدلى لسانها إلى الركبتين، وهى تخورُ مثل بقرة، كان الجنيُّ الذي يركبُ الدوامة، يُحاولُ دفعي إلى بئر الساقية، والثعابين قد انتشرت في كل مكان، كانت تطولُ وتقصرُ، تظهرُ ثم تختفي، كنتُ أنتفضُ والآيات تتلكأ في فمي، وأنا أقرأ آية الكرسي والآيتان الأخيرتان من سورة البقرة، كنتُ أجري لأبحث عن مخرج، أجري فوق أكوام من اللحم الطري، تغوصُ فيه أقدامي، وكنتُ أرددُ وأرددُ الآيات، وشعرتُ بقوة في يدي، حملتُ الأريكة وأسندتها إلى حائط الجدار الغربي للحديقة، وجعلتُ من فراغات الألواح الساقطة سُلمًا غير أني كلما وضعت قدمي على لوح أُسقط هذا اللوح من فوره ،

عاودت الكَرَّة ، كانت يدي وأقدامي وفكي يرتعدون، جذبتُ الأريكة لأسفل حتى أتمكن من الفتحة الأخيرة، وثبت سريعًا من فتحة الأريكة إلى السور الذي تعلقتُ به وتشبثتُ به يداي اللتان ارتكزتُ بهما على حائط السور، وارتفعتُ بنصفي الأعلى، ثم انحنيتُ به حتى تمكنتُ من سحب نصفي الأسفل، وقفزتُ من فوق السور وسقطتُ أرضًا، ثم نهضتُ وعاودتُ الجري بما يسمحُ به ما تبقى من قوتي، كنتُ أدفعُ الهواء والظلام بصدري وأجري، حاملة سنوات عمري البائسة وأجري

لاح لعيني ضوءٌ بعيدٌ، وكان لمحطة وقود، وكان قبالتها أرض شاسعة، غرس بها أعمدة خرسانية، وكانت هناك أطلال لبيت قديم، تكوَّمتُ بجوار سوره المهدم، جسدي أعياه الحزنُ، وضياع الحلم، والمطاردة والجري طول الليل.

(٢)

تقهقر الظلام وتراجع أمام نور الصبح، وقد بدت معالم البيت والمكان واضحة تمامًا، البيت يشبه دماري وخرابي الداخلي، نصف البيت الأعلى سقط فوق نصفه الأسفل، فاختفى وجهه تمامًا، تحت ركام من التراب والطوب، وأكوام من القمامة تنتشرُ في المكان، خرق قديمة وأكياس من البلاستيك، صفائح فارغة، وإطارات سيارات، براميل وأكوام من الخشب قطع صغيرة تالفة، وأجولة فارغة وقطع من السجاد القديم يغطيها التراب.

سريعًا ستمضي ساعات النهار، ويأتي الليل ببرده وظلامه، فكيف أبقى وسط هذا الخراب الذي تسكنه عشرات الهوام؟

أين أبيت وإلى أين أذهب؟ السحبُ تركضُ في السماء ماذا لو أمطرت؟ ثمة بيوت تحت الإنشاء، مجرد أعمدة خرسانية، لا يوجد مأوى ولا مخبأ، غريبة أنا في بلد غريب وحدي هنا لا أهل، ولا مال، ولا طعام، ولا ماء ولا نخلة أهز جذعها، تسّاقط عليَّ رطبًا جنيًا، ولا مسيحًا أحمله ليبرئ ساحتي أمام أهلي، كي لا يهدروا دمي،

ولا أحد يكفُلني، بل جميعهم يسعى لهلاكي.

أنظر، أنظر كيف تطاردني مخلوقاتك الشريرة ؟

أنظر، ماذا فعل بي يوسف ليحصل على تأشيرة سفر لأمريكا ؟

أنظر، أظلم أنا تحت سمائك ..وأطارد فوق أرضك، يملؤني الخوف واليأس وأشقى بأحزاني فإلام تتركني، وإلام تنساني؟

أهو القدر نصب شباكه ليتصيدني؟! فليهنأ إذن قدري بصيده وليرقص ما شاء له على جثث أيامي القادمة، إذا كانت هناك أيامًا قادمة، وليوغل ما شاء له في دمي يزرع حنظله، ويغرسُ أشواكه في رأسي وضلوعي، وليرتع ما شاء له من دمعي ومن دمي يرتع .. يرتع

* * *

كان علي أن أنهض لأدبر لنفسى مخبئًا آوي إليه قبل أن تمطر السماء، أو يحل الظلام، وكان علي أن أستدعي بعض الهمة، فإيجاد مأوى وسط هذه الفوضى الوحشية، أمر يتطلب ساعات طوال من العمل المتواصل، كانت هناك كدمات متفرقة في جسدي أثر سقوطي المتكرر من فوق الأسوار، ينتشرُ الوجع في كامل جسدي، ولكن عليّ أن أنهضَ وأعملَ، كنتُ أحملُ الطوبَ من داخل محيط البيت لأغلق الثغرات، وأقيمُ الأجزاء المنهارة من السور حتى يتسنى لي إخلاء مربع في ركن السور أقيم فيه مخبئي، صففتُ البراميل الأربعة مُكونةً منها جدارا ، وكان هناك لوحٌ من الصاج المعرَّج،

رفعتُ طرفه وحملته علي ظهري وجررته خطوةً خطوةً، ولأن قوتي لن تسعفني في جعله سقفًا، فقد أملته وأسندته علي حائط السور، فأخذ شكل مثلث وأصبح لي بعد ساعات غرفة هرمية الشكل، بنيتُ بداخلها مصطبة بالطوب، وجمعتُ الأجولة والخرق القديمة، واستخلصت قطع السجاد من تحت الركام، ونفضته وتناثر عليّ الغبار، وسقطت خنافس كثيرة، كانت تختبئ في ثناياها، وقمتُ بفرد الأجولة والخرق فوق المصطبة، وحفرتُ في ركن الغرفة المزعومة حُفرةً وجعلتها مرحاضًا، بعد أن وضعت فوق فوهتها قطعتين من الخشب لأضع عليهما قدمي.

وبحثتُ بين الأنقاض عن شيء أتدثرُبه، فعثرت علي معطف عسكري كاكي اللون، كانت العثة قد أحدثت فيه ثقوبًا كثيرة، وأفسدت بطانته تمامًا، نفضتُ عنه الغبار، وتمنيت ألَّا يأتي الليل أبدًا.

كان هناك قطٌ يموءُ رمادي اللون، عيناه خضراوين وعنقه طويل قياسًا بقطط قريتي، جعلتُ أناديه، وأبسبسُ له تعال يا صديقي لا تخف، أعلم أنك هارب من شرور الناس لائذُ بالعزلة، والوحدة هنا في هذا المكان الخرب، لم تعدْ وحدك في هذا الخراب المُوحش، لم تعدْ المُشردُ الوحيد هنا، فقد انضم إليك مُشردُ آخر، آسفة لأني لا أملك طعامًا أعطيه لك، فأنا مثلك خاوية الأمعاء ، لم أذقْ الطعام منذ أيام، لم أذقْ يا صديقي سوى الحزن والخوف والمرارة والآلام تعال لا تخف .

(٣)

سرعان ما انقضت ساعات النهار، وها هو الليل يُقبلُ بوجهه الأسود، وقلبه الأسود وردائه الأسود وروحه السوداء، يُقبلُ بوجه عبوس، لا توهمني أيها الليل أنك تحزن لأجلي، أنا لم يحزنْ لأجلي أحدٌ، ولم يهتمْ

لأمري أحدٌ، تحملُ بين طيات ردائك الأسود كل ما يخيفني، ويفزعني من هوام وشياطين، طبقاتُ كثيفة من ظلامك، تسبحُ عبر أمواجها كل صنوف الحشرات وتمرح الأشباح.

* * *

تُرى من أين يجئ الظلام ؟ هل يصعد من جوف الأرض أم يهبط من السماء؟ هل أموت الليلة ؟ ما الذي يمكن أن تمتدُ به يد الموت إليّ ؟ سكينٌ من يد أحد المجرمين الذين يلوذون بالفرار إلى هذه الأماكن الخربة عقب ارتكاب جرائمهم؟ أم ثعبان يزحفُ في الظلام، فيعضني ويسري سمَّه في أوردتي ويصلُ إلي قلبي فأموت في الحال؟

يمكن أن أموت من الحزن أو حتى من الخوف واليأس، من عدم الماء والخبز، من الحرمان وضياع الحلم، أشياء كثيرة تأتي بالموت

****

تمنيت أن أحيا في كنف من أحببتُ، أحيا في سعادة ورضا وكرامة، فما دمتُ لن أحيا في كرامة، فلا بأس من الموت في الخرائب بلا أدنى كرامة لا بأس فلنترك هذه الدنيا المحزنة، لنترك هؤلاء الأشرار، ضابط أمن الدولة والقس وعمي، هؤلاء تمتلئ بهم الدنيا.

غير أني لن أجعلَ الموتُ يُخيفني، قد أرحبُ به أو قد أصفعُهُ على قفاه وأركله وأنهره وأدفع به بعيدًا عني وأقول له : فلتمت أيها الموت أنا لن أموت الآن

ماذا لو بقيت على قيد الحياة بلا بيت بلا هوية بلا عمل .. ماذا أجني من تلك الحياة ؟

صور كثيرة وأخيلة تتراءي لي، ربما يكون أحد العفاريت التي اعترضتني خالطت جسدي، خالطت نفسي فاستدعيه ليخبرني بما يقعُ في أماكن بعيدة ومن خلال مسافات لا تدركها عيني.

أتخيلُ نفسي، أجلسُ بين النسوة لأكتب أحجبةً للتي هجرها زوجها، وللبنت العانس والمرأة التي لا تنجبُ، والأمِ التي تاه صغيرها، وأخبر أخرى عمن أغوى ابنتها، فهربت معه وأخبر تلك عمن سرق نقودها ،وأطلقُ البخور وأعبثُ مع الشياطين في الخرائب حتى أقع في فخ الشيخوخة الذي سيوصلني إلي البلاهة أو الجنون، يكرهني الأطفال ويدعونني بالساحرة الشريرة، ويتساءلون إن كان معي مكنسة مسحورة، أطير بها لأخطف ألعابهم، وأصنع الشر بأهليهم، فيضربونني بالطوب ويجرون خلفي تارةً، وتارة يجرون مني، وأتخيلك يا يوسف تمر بعربتك اللامعة الفخمة وقد عدت من أمريكا لزيارة الأهل، وبجوارك زوجتك الأمريكية الجميلة وأطفالك النظيفون.

أتخيلك تمرُ من هنا، وحين أخرجُ من إحدى الخرائب، عجوزا بائسة بملابس رثة وغطاء رأس متسخ، وقد أنكرتني تمامًا يا حبيبي.

قد تسرع بعربتك كي لا تؤذي عين أطفالك بشناعة هيأتي أو قد تتوقف لتعطيني من الخبزوبعض الماء لتعلم أطفالك صفة الإحسان.

وقد أقول في صمت :إنها أنا .. أنا أيها المسافر الخائن الحبيب .. إنها أنا لكنَّ خجلي يمنعني من الاقتراب

بعدما أصبحت ما عليه أنت ..واصبحت ما عليه أنا .. إنها أنا

(٤)

وارب الصبح بابه، أنا ما زلت أحيا مُتجمدةً من البرد خاوية البطن، مملوءة بالحزن، وما زلت أحيا.

خرجتُ من مخبئي، الشمسُ لم تشرق بعد، تسللتُ لأستكشف ما حول المكان، عثرتُ على مقلب للقمامة قريبًا إلى حد ما من مخبئي، وكانت هناك أجولة مملوءة بالقمامة، أفرغتها وفرزت ما بها وما حولها.

كنتُ أقلِّبُ أكوام القمامة، وأتلفتُ حولي خشية أن يراني أحد ما فيعرف مكاني، ويأتي ليلا ويؤذيني، أصبحَ الخوفُ يُخالطُ أنفاسي، دقات قلبي، كل ثواني حياتي.

مروقتٌ ليس بقليل وكانت الحصيلةُ لا بأس بها، وأكثر ما أسعدني في تسوقي هذا، هو علبة الثقاب التي حصلت عليها وبها بضعة أعواد.

جرجرت الجوال من فمه وجريت إلى المخبأ وكان به العديد من الأشياء المفيدة، ملاعق بلاستيك وبقايا صابون وأعقاب شموع، ولقيمات جافة من الفينو، وأخرى من الخبز الأسمر، برطمانات بها نتفٌ صغيرةٌ من المربى، وعلب جبنة فارغة علق بقعرها فتات من الجبن، علب طحينية بها فتات من الطحينية، شفرة سكين وأسلاك وملابس مهترئة وثلاث بصلات كبيرات، زجاجات ماء فارغة، سوف أتسللُ بعد قليل إلى محطة الوقود وأبحثُ به عن ماء، أملأ به الزجاجات الثلاث.

وضعتُ لقمة من الفينو الجاف في فمي، قرمشتها بين أسناني، ولم أستطعْ ابتلاعها، كانت قد اكتسبت رائحة غير طيبة، سيما وأن الجوال الذي كانت به هذه اللقيمات، كان معها فوط صحية ملونة بدم الدورة الشهرية، لم أعد أرغب في الطعام.

يبدو أن معدتي بعد أيام من الانقطاع عن الطعام، يئست من تلقي الطعام، فأغلقت بابها وانتهى أمرها.

طوال الوقت أفكرُ في تطوير حجرتي المزعومة اتقاءً البرد، ومتشردي الليل، وكنت قد نظفت مساحة كبيرة، أمام غرفتي الهرمية البائسة.
قمتُ بعمل حفرةٍ أمامها مُباشرةً، عبأتها بأكياس البلاستيك، وأوراق الصحف وشكائر الأسمنت الفارغة، وصلبتُ فوقها قطع الخشب، وخبأتُ بينها سيخًا حديديًا استلَّته يدي من شباك قديم، كان تحت الأنقاض، وخطر لي أن أعد لنفسي مخبئًا داخل المخبأ، فقد كان أحد البراميل الثلاثة من دون قعر، مفتوحًا من الجهتين، أدخلته غرفتي المزعومة وأرقدته، صففتُ الطوب أسفله وعلى جانبيه لكي يثبت، فلا يتدحرجُ عند الاستخدام، وجعلتُ فوهته تولي صوب الحائط، وتركتُ مسافةً صغيرةً بين فوهة البرميل والحائط، وفرشته من الداخل بالخرق القديمة، ورحتُ أتدربُ على الانزلاق سريعًا بداخله، في حالات الخطر من هجوم ما وشعرت بشيء من الأمان.
*****
في المساء كنتُ قد أعددتُ لليل مفاجأة سيأتي ليهيل عليّ كومة عظيمة من البرد والظلام، وسأفاجئه بالنور فينهارُوينهزمُ، وسأُذيبُ صقيعه بالنار، أحضرتُ كومةً كبيرةً من قطع الخشب المُلقاة في الأماكن المنشأة، كومة من متخلفات أعمدة خرسانية، وطوابق شاهقة لكنها بلا جدران، ولما اشتد الظلام، أشعلتُ النار ورحتُ أطعمها خشبًا وقشًا وخرقًا بالية، ودفنتُ فيها بصلة تركتها حتى تفحمت قشرتها الخارجية نفختُ فيها حتى هدأت بعض الشيء، فالتهمتها واشتهيتُ جرعة ماء وكوبًا من الشاي.
كان السيخُ الذي مددته فوق الحفرة، قد صار أحمر بلون جهنم، قد تُغري النار أحد المتطفلين، وعلي أن أكونَ مُسلحةً، وليس هناك أفضل من سيخ حامٍ حيث لا يستطيع الإمساك به ونزعه من يدي.

تيممتُ بالتراب وصليتُ العشاء، وجعلتُ أذكرُ الله كثيرًا تهيؤًا للقائه بعد الموت، الذي قد يجئ في أي لحظة، وتمنيتُ أيضًا أن أجدَ السبيلَ لاسترداد حقيبتي من حديقة الشيطان، ساعتها سأسافر إلى مطروح وسأعملُ في أي عيادة أو مستشفى استثماري.

مطروح هي الأمل والحل، وكانت من قبل هي الحلم، حلمُ البيت بسوره البرتقالي وحديقته الخضراء وغرفه البيضاء

* * *

رقص اللهيب ألمًا إذ لفحه الهواء، وصوت فيروز يهمسُ في أذني :

غنيٌ وأنت وحيدة ، فإن الغناء يُقصر الليالي ، غنَّيتُ من دون صوت، والدمع في عيني:

عندي بيت وأرض صغيرة

فأنا الآن يسكنني الأمان

أقول لبيتنا إذا صرت وحدي وهبت ليالٍ

بثلج وبرد، ليالي وبيتي يناروا

ويمضي الشتاء رفيقًا كغابة ورد

أقول لطفلتي فلنصلِّ، فإن الصغارَ صلاتهم لا تُردُ

أقول لجارتي ألا جئتُ نسهرُ، فعندي تين ولوز وسكر

ليس لي بيت يُناريا فيروز ليشعرني بالأمان، ولا طفلة تُصلي معي ليقبل الله الدعاء ، ولا جارة تسهر معي وتؤنس وحدتي، لا شيء سوى الخوف، والبرد، والوحدة، والظلام، وحدي وسط الخراب أجني ثمار قراراتي ألمًا ومرارةً، مع أني لم أتردد لحظةً واحدةً في اتخاذ قراري، بالفرار إليك يا يوسف، بل كنتُ ولسذاجتي، وجهلي أظنُ بأنه أفضل قراراتي، .

. العشق يغبش رؤانا ، ويفقدنا صوابنا تماما".. فلا تعود لدينا القدرة لنفرّق بين ما هو حقيقي وما هو زائف

تثاءبتُ أدهشني أني تثاءبت، هل أنزلَ الله السكينة في قلبي، أم أنني لم أعدْ أرهب الموت كالأعمى الذي لا يرهب الظلام ؟

سهرتُ والجمراتُ معي نقاوم معا البرد والخوف والظلام .. أصبح بمقدورك الآن أيها القلب، وبعيدًا عن أعين المتطفلين والشامتين، ومدعي الشفقة ومدعي الفضيلة والمنافقين، أن تحزنَ كما تشاءُ، وبأية طريقة تشاءُ، وأن تغضبَ بالطريقة التي تروقُ لك، كأن تبصقَ لأبعد مكان، بصقة عظيمة يغطي رذاذها الكون كله ، أو تخرج لسانك عن آخره، أو تتشقلب بطول وعرض هذا الخراب، ولينطلق نحيبك يعلو، ويرتفعُ حد السماء، لك أن تضحكَ بالطعم الذي يليقُ بفجيعتك وعظم الطعنة الموجهة لك، اصرخْ بحجم كارثتك، العنْ أجداد من خانوك، وابكِ قدر ما تسمحُ به طاقة البكاء، ابكِ،

جَرّبْ كل صنوف الانفعال، إلى أن يهربَ الليل من وجه الصباح. إذا ما كان هناك صباحات متبقية لنا

* * *

الفصل السادس

(١)

عاد لتوه من رحلته المشؤمة ، يتعثر في غبشة الفجر،

يخوض في لجة من العار وتلال الهم تضغط على رأسه وكتفيه، يلفه البرد والظلام وشبح العار

إياك وأن تحني الرأس يا عمران ،إياك وأن تجعل عين تلمح انكسارك.. ولا حتى أهل دارك

دارِ على بلواك واقعد مع نفسك ،واطلب الستر من ربك .وفكر بعقل .. ثوب الرجال غالٍ يا عمران

والعمامة اللى على راسك لها عليك واجب وحق .. وإلا اشتري طرحة نسا واقعد بين الحريم ونوح ، وولول

.كل بلوى ولها دوا ،وكل عقدة لها عند الكريم حل .

***

. الصمت هو سيد المكان الآن .. الصمت في هكذا ظروف هو لغة العقل ..لغة بليغة شديدة التعقيد ..الصمت هنا هو المرادف للصبر

بصمت وضعت زوجته الطعام أمامه، وكوب الشاي.. لم تسأله في شيء .. وبصمت تناول لقيمات ، حاول أن يبتلعها رغم مرارتها الطافحة في حلقه .

. أُعلن في المسجد القريب عن وفاة (بنت عوض الفرارجي)والدفن بعد العصر، والعزاء على المقابر

.وإنا لله وإنا إليه راجعون

. ومن دون أن يسأل تطوعت زوجته وأخبرته أنها سقطت من أعلى السطح كانت متكئة على سور السطح تنادي أخاها وكما تعلم السور مهزوزومن الطوب (الني) مال بها وسقطت على رأسها ،كان ذلك بالأمس نُقلت للمستشفى العام

وكانت حالتها سيئة .. يرحمها الله.

.قام من فوره وعقد يديه خلف ظهره وقد انحنى ظهره ومال قليلا" للأمام .. كان يفكر في أمر ما، وكانت تلك طريقته حين يكون هناك أمر يحتاج إلى خطة معقدة تتطلب التركيز.

. كانت تفهمه ، على الفور انسحبت من أمامه وتركته بمفرده يذهب ويجيء

.الآن اكتملت الفكرة لديه .

.مربيت أخيه . كانت أم مريم تقرفص خلف الباب تبكي بحرقة ورأسها بين ركبتها وتنوح بصمت

دليت يا ربي ..

حق النبي دليت، لو كنت حيط لملت واتهديت

حق النبي دليت يا ربي كما يدل الخيل ويسبّي.

.....

. الحزن والهم نصيب كل انسان على الأرض .. وبالذات نصيبي أنا يابوي ،يا شقا ء قلبك يا سكينة واحدة من بناتك ماتت والتانية هناك في الضلمة تدق على بوابة الموت ، على باب القبرتدق !.

يسألني الناس عنك يا مريم .. أجيب : في العمل ، في المستشفى أخفيت خبرهروبك عن خالتك ، عن جدتك ، عن اخوتك ، وأطفال أختك.. خفت عليك من غضب عمك إن علم بغيابك

كان عندي أمل أنك ترجعي وتقولي : سامحيني يا اماي . والله كنت اسامحك يا بتي وكنت.. .....

لا تكاد تكمل جملتها تهدربالبكاء ، ويتضور قلبها ألما .

. خطوات ثقيلة تقترب وظل داكن يسبق الخطى .. رفعت عينها صوب الوجه المتصلب ، وسرعان ما أغمضتهما لتتفادى بصقة حارقة .. قال من خلال أسنانه المطبقة القابضة على رأس الغضب:

الليلة حنة مريم وعقد قرانها على أرمل أختها

. لم تفهم لم تستوعب ولم تجرؤ على سؤاله : كيف ؟

. دارت عيناها محملقتين دون أن ترى شيء، أو تتوقف عند شيء

(٢)

على عيني يا بوي وخدي لأقدامك مداس

ولا يوم ينحني عودك ، ولا يوم تطاطي الراس

. ربت على كتفها وراح يؤكد عليها : إياك يا صفية والخطأ ..أنت الآن .. مريم

***

. ذبح العجل ،وامتلأت الرحبة بشباب العائلة ..والنسوة شمرن عن سواعدهن .

وأم مريم تائهة عيناها صارتا دائرتين من الزجاج، تلمعان، لا شيء فيهما سوى تلك النظرة الفارغة ، البلهاء.

.سيكون الفرح كبيرا ، لكن من دون طبل وزغاريد .. هناك صبية دفنت اليوم ،وجب علينا احترام أحزان أهلها كل القرية ستهنؤك يا عمران وتقف مختالا" بجلبابك الجديد وعباءتك البنية اللون

وشالك الحريري ، تُعطر ثيابك وتتبختر، وتدعوا كبراء البلد ليكونوا شهودا" على العقد

اليوم عقد قران مريم وحنتها ، والعاقبة عندكم

نستعرض شباب العائلة ، البعض منهم يصطف لاستقبال المهنئين ، والبعض الآخر يذهبون ويجيئون ، يحملون صواني الطعام الدائرية الكبيرة وسلال الخبز، وصواني الشاي لمن فرغ من طعامه

بجلابيب معطرة وشيلان حريرية عاطرة غالية الثمن

***

ياوردة في شالك ياعروسة .. ياوردة في شالك

شرفت ابوك يا عروسة .. وفرحت خالك

ياوردة في كُمك ياعروسة يا وردة في كُمك .. شرفت عمك يا عروسة وفرحت أمك

****

. على كرسي من البلاستيك أحمر اللون وضع فوق الدكة أوشكت أن تجلس صفية ، وكأنها وبحق مريم .. طرحتها طبقتين من التُل الوردي

يخفيان الفروقات القليلة بينهما.. ستبقى بين البنات لوقت قليل ثم تصعد حاملة صينية صغيرة ملؤها حناء
تتوسطها شمعتان كبيرتان .. تراها النسوة والبنات
وتبقى الصواني الأخرى الملأى بالحنا ء والشموع
لتوزع على الصبايا والأطفال كما هي العادة

. ينهرهن عمران لا غناء ولا رقص ويلوح بعصاه ،ويضرب الكرسي الأحمر ويأمر العروس المزعومة أن تأخذ شمعتها ، وتصعد غرفتها .. ويقسم بالله : ويحلف طلاقاً لولا الإشهار ما دعى أحد .. هناك صبية ماتت اليوم ..
كما انها ستحل ، محل أختها التي ماتت فلا يجوز الفرح .. لا يجوز . نسيتوا العيب ؟ .. نسيتوا الأصول يضرب كف بكف ويترك المكان وهو يتمتم بعبارات الغضب !

(٣)
.الجزء الأهم في هذه الليلة يا عمران سيكون بعد انتهاء الحفل ، بعد ذهاب الناس إلى بيوتهم
حيث الحصول على جثة .بنت الفرارجي .التي دفنت عصر اليوم
يا رب يا ستار..لا تفضح الأسرار
. العروس تركت الشموع مشتعلة ، ونامت ، سقطت الشمعة فوق كومة من ملابسها.. ثم امتدت ألسنة اللهب لملاءة السرير الذي تنام عليه فأمسكت بها النار وانطلقت صرخاتها التي سمعها القاصي والداني ،
حاصرتها النيران وفشلت كل محاولات الإنقاذ
. كم هو مؤلم موت الصبايا والعرائس بخاصة .. كم هو مؤلم

سيتعاطفون معنا وتنوح النسوة بما يليق بموتها وهي التي بعد في ريعان الشباب

يا محلى تلك على ضهرك

يبكي شبابك كُل من نضرك

كانت تزين البيت وقفتها زي القمرف الليل طلعتها .

. في الثلث الا خير من الليل أنجز كل شيء سرقة الجثة ، وإشعال النار، وصراخ صفية . مريم المزعومة.

عندما استوعب الناس بعد أن هشوا النوم عن أجفانهم، وجاءوا هرولة من هنا وهناك وتجمهروا خارج البوابة المغلقة ..كان كل شيء قد انتهى في الصباح أُعلن عن موتها .. ماتت محترقة بشموع فرحتها شموع حنتها . كانت جنازتها مهيبة بكاها الرجال والنساء والأطفال

. الآن لم يتبقَّ من مريم سوى الذكرى وقسيمة زواج لم يكتمل .. وشهادة وفاة

إنا لله وإنا إليه راجعون .

****

الفصل السابع

(١)

كنتُ قد عزمت على البحث ،عن حديقة الشيطان لأسترد حقيبتي و أفر إلى مطروح

وجهتُ وجهي صوب الاتجاهات الأربع، وليس ثمة ترعة ولا حديقة ولا قنطرة، ولأني كنتُ أجري في تلك الليلة المظلمة على غير هدى، فلا أعرف من أي الجهات أتيتُ لأولي وجهي صوبها وأمضي في بحثي.

.السماء تكتظ بالسحب الرُمادية القاتمة ، قد تمطر السماء ما بين لحظة وأخرى ، وعليّ أن أهم بجمع أكبر كمية من الخرق والورق والأخشاب وكل ما يصلح طعام للنار

أقبلَ من بعيد صاحب العربة الكارو المحملة بالُقمامة .. أنا الآن مصابة بالديزنتاريا ، أمعائي تتمزق من وقت أن أكلت ثمرة الباذنجان ، وكان ذلك أول أمس .. مع أني أكلت نصفها السليم

. تمنيت من الله أن أجد بين قُمامة اليوم ليمونة ، ولو كانت ذابلة ، ماؤها قليل ..لا يهم وماذا عساي أن أجد إلا شيئا نفعه قليل

. تصدعت الغيمات ، والكثير منها تبددت، وأشرقت الشمس.. وكانت قُمامة اليوم زاخرة بالأشياء النافعة ، ولاعة مازالت تعمل ، في قعرها قليل من الوقود .

. والكثير من ثمار الكوسة الذابلة ، قليل من قرون اللوبيا الخضراء مصابة في أحدى حباتها بالعطب .. وطبقة بيضاء من البصل ،مغلفة بالقشرة الصفراء الخارجية

ومما زاد بهجتي تلك الورقة المالية من فئة العشرين جنيه ، وزجاجة سعة لتر مملوءة إلى الثُلث بالمياه المعدنية

***

بنيت كانونا" من الطوب وشققت علبة سمن فارغة مصنوعة من الصفيح ، ونزعت بواسطة شفرت السكين التي بحوزتي ، نزعت قعرها ، وقمت بفردها ، وأصبح بذلك لدي صاجٌ أستخدمه في شيٍّ ما أحصل عليه من خضروات فاسدة التقطها من القُمامة

. أكلت حبات اللوبيا الخضراء وشربت جرعة ماء وادَّخرت ثمار الكوسة للمساء ..العالم سيحتفل اليوم بليلة برأس السنة

بينما أكون هنا وقد أُغلقت بوجهي كل الأبواب ، وسُدت أمامي كل الطرقات تماما".

. مثلي لا تعنى بالقادم من أيام ؛ الموت بكل وجوهه، وصنوفه، وأبعاده ، وألوانه. يتمركز حولي هنا ينتظر اللحظة المواتية لينقض عليّ ولن يتركني إلا وعاء فارغا من الروح ، من الحياة .. لماذا لا أرقص ؟.. أستشعر لحنا" همجيا" وحشيا" يغزو كل كياني الآن

أشعر بشيء من الراحة ، من الجنون الكامل ... في القلب يقين، بأن ليس في الكون سواي .. أمر مثير، كئيب ، مضحك

أخذت أجأرعلى غيرعادتي ، وضحكت من دون سبب هههههه..الجنون نعمة ؛ فلتبقي معي أيتها النعمة

سأرقص .. ليس في الكون سواي ،لا أشرارينالون مني ، ولا أخياريمدون يد العون إليَّ ،هههههه ، سأرقص

أقف على رؤوس أصابع قدمي ، وأرفع ذراعي لأعلى، ثم أهبط على قدمي بشكل مفاجئ، وأصعد ، أرفع قليلا" ثيابي أكشف عن سيقاني، أهز الصدروالكتفين، وأغمزبطرف العين ، وأضحك ..

ثم أترك جسدي بدمائه ، وعظامه ، وقلبه المملوء بالغم ، وأحشائه الملأى بالبكتريا ، وأحلق عاليا" .. بعيدا" .. بعيد .. . وأغيب .. أغيب .. أغيب.

****

سرعان ما التحمت الغيوم مرة ثانية ، واختفت الشمس ، وكانت توشك على المغيب ، وبدأ المطرينهمر، قارعا" اللوح المعرج ..

سقف غرفتي الافتراضي وكتلة من الهواء البارد تتغلغل في عظامي المتعبة ، المنهكة ، لتيقظ أوجاعها

. أشعلت النارفي الكانون وصففت على الصاج بعضا من طبقات البصل وشريحتين من ثمارالكوسة التى كانت مريضة ، ذابلة شاحبة اللون .. وكان الصاج يحمل مسحة من الدهون ما جعله يُخرج كمية هائلة من الدخان ثم ما لبث أن أشتعل

الجميع الكانون والصاج وثمارالكوسة وطبقات البصل . وحتى بعد أن أطفأت الكانون ظلت النارمشتعلة فاحترق الطعام وكانت معدتي تحتاج القليل منه

وكان قد أوحي إلي من اللا أدري.. أن امسحي دمعك ، وارفعي وجهك، وافتحي فمك ؛ يساقط عليك أرغفة طرية وفاكهة طازجة مسكرة ،

وزجاجة مياه غازية وأُخرى معدنية ؛ رفعت وجهي ، وفتحت فمي لبعض الوقت فسقطت فيه قطرة من ماء المطر مشبعة بالتراب الملتصق بصاج السقف ، فبصقتها في الحال. مثلي لا يوحى إليها من السماء، قالت لي أُمي

متوعدة إن لم تطيعيني ؛فلن أرضى عنك وإن لم أرضَ عنك فلن ترضى عنك السماء ما حييتِ ، وإن طال بك العمر وما بعد العمر، إلى يوم الحشر

إذن لن يوحى إليَّ من السماء ..أنا الغاضبة ، المُغاضبة ، المغضوب عليها من السماء.. إنها الشياطين التي تسكن هذه الخرائب، والتي تلعب ، وتتلاعب بي حتى أُجنَّ كلية ولا عزاء

****

أجلس عند طرف وحدتي ، وأتذكر كل نفايات الماضي ،نفايات تنهش قلبي بلا رحمة .. ليس ليّ أي فرح ، لأسترجعه عن طريق الذاكرة فيُسري عني قليلا" ..ليس لي أي فرح .. خُدعة ،خدعة كبيرة، رهيبة ، لا مثيل لخسَّتها . شريط ذكرياتي يمرُّ من أمام عيني، جالبا غبار الماضي.. كنت في بداية المرحلة الثانوية ، وكان زميلي في المدرسة ذاتها ، يجمعنا طابور الصباح ، والطُرقة ، والمكتبة ..تبادلنا النظرات ذات يوم ، وحدث أن تجاذبت أرواحنا، وأصبح كل منا يبحث في كل صباح عن الآخر،كان يسترق النظر إليّ ،نتبادل الابتسام،

كانت لديه دراجة حمراء يمر كل يوم من أمام بيتنا ، وبعد أن يطمئن أن الجميع نيام يقفز من فوق السور الواطئ ، الذي يحيط ببيتنا ، يُحدث نقرة أسفل شجرة السدرويدس فيها علبة صغيرة من البلاستيك يضع فيها عود من الريحان وخطاب ، صار جذع الشجرة صندوق البريد

خاصتنا ، نتبادل من خلاله الرسائل ..في البداية كنت أقرأ رسائله ولا أرد ، وحين يجد العُلبة فارغة يعلم أني أخذت الرسالة ، ثم بدأت بعد ذلك ،أستل رسالته وأضع رسالتي ..لم يكن لدينا ما يسعفنا من الكلمات لنعبر عما تجيش به عواطفنا فكنا نكتب ما نحفظه من أغانٍ.. ثلاث سنوات هو عمر قصتنا .. كلانا كان يحلم بأن يكون طبيبا

وكلانا أخفق ،ألتحق هو بكلية العلوم ،والتحقت أنا بمعهد التمريض ،وذهب كل منا في طريق وانتهت قصتنا بصمت ، كما بدأت بصمت تألَّمتْ روحي لفترة ليست بعيدة وكنت قد أحسست بفراغ عاطفي ، وبأني وحيدة إلى آخر حدود اليأس وحيدة .. غير أني تخطيت الأمر بعد ذلك ولم أعد أتذكره إلا فيما ندر.

(٢)

أبرقت السماء ، وزمجرت ، وخيل إلي أنها تصدعت وأنها ما بين لحظة وأُخري ستتساقط فوق رأسي أحجار من الجحيم ارتعدت أوصالي ، وكدت أبول في سروالي ؛ وهنت أعصابي لم تعد قادرة على تحمل المزيد من الصدمات ..

، أرتعد خوفا" وبردا" .. ليس لدي ما أرتديه ليقيني البرد

تجمدت يديّ ورحت أدفؤها بأنفاسي وأنفخ فيها .. الليل نفق طويل ، مظلم وبارد أمشي فيه حبوا" على ركبتي ، زحفا" على الكوعين وأجرجر بصعوبة بدني المثقل باليأس والحزن .. تعبت .. تعبت

***

.في كل صباح كنت أظل مختبئة ، حتى يُفرغ الزبال حمولته ويبتعد ، أتلفَّت حولي وأتسلل إلى كومة القمامة أبحث فيها عما يقيم أودي

ويعينني على مقاومة الجوع والبرد والظلام و الظمأ
اليوم انتظرت صاحب العربة الكارو حتى جاء ، توجهت مباشرة إليه ، قابضة على العشرين جنيه التي عثرت عليها
بين أكوام القُمامة منذ أيام
ألقيتُ عليه بتحية الصباح فلم يجبْ، ثم توجهتُ مباشرة بسؤاله:
عمّا إذا كانت هناك ترعة قريبة من هنا؟
لم ينطقْ بكلمة وكان مشغولا بربط الحمار بالعربة بعد أن أفرغَ حمولتها ولأني سبق وأن قطعت مسيرة نصف ليلة لأصل إلى هذا المكان ، فذلك يعني أنه من غير الممكن الذهاب إلي الحديقة، والعودة قبيل الغروب ناهيك أني لا أعرف أي جهة أوليّ
هممتُ بأن أعاودَ طرح السؤال عليه ، لكنه لم يولني أي اهتمام بل أولاني ظهره وشد على الحمار الذي يجر العربة، ثم أطلقَ صيحةً قويةً، ليحث حماره على الإسراع ؛ تبينت من خلالها أنه مصاب بالخرس
، بحثتُ في القمامة عن الطعام وبكيتُ، بكيتُ يأسي وعجزي وقلة حيلتي وعدتُ إلى مخبئي خائبة الرجاء، ولم أستطعْ إيقاف نوبة البكاء التي حلت بي، إلى متى أتنقلُ بين الخرائب مثل حيوانات صغيرة ضارة مطاردة إلى متى؟
فرشتُ جوالًا بجوار حائط السور، ورقدتُ ، فأنا لا أنام ليلًا تكورتُ على نفسي ونمتُ، والشمسُ تظهرُ حينًا، وتختفي خلف السحاب حينًا، لكني غططتُ في نوم عميق يشبه الموت، وحين أفقتُ كانت السماء مُكتظةً بالسحب الرمادية، وقد اختفت الشمس تمامًا لا أعرف إن كانت غربت أم لا؟ بصعوبة نهضتُ على أقدامي.
جمعتُ كومةً من الخشب والورق، وتركتها بجوار الحفرة استعدادًا

لليل طويل ، بارد ومليء بالهواجس والأحزان.
كانت علبةُ الطحينية التي استخلصتها من كومة القمامة اليوم بها قطعةً في حجم نصف البيضة وضعتها في فمي، وكنتُ قد عثرت علي زجاجة بها قليل من الخل، أخذتُ منها جرعة صغيرة، وكنت أشعرُبالغثيان، وكانت الأرضُ تتأرجحُ تحت أقدامي، وكانت السماءُ تُزمجرُوالقط الرمادي يتبعُ خطواتي المهتزة غرفتني دوامة، فاستندت إلى جدار السور، ثم تقيأتُ فتافيت الطحينية، وقطرات الخل وكثيرمن الدم، ثم سقطتُ أرضًا ولم أشعربشيء، أبرقتُ السماءُ وهطلتُ الأمطارُغزيرةً، فبللتْ بؤسي وأحالت غباره إلي طين، وابتلت ثيابي التي لا أملك غيرها وأبتل فراشي، حاولت الوصول إلى البرميل، وكانت أقدامي مُوحلةً، وحين بلغته عاودني القيء، لا أعرف إذا كان هذا الدم مصدره معدتي أم أمعائي أم قلبي، فكلي جروح، تسارعت ضربات قلبي، وكنتُ أرتعدُ، وكان المعطفُ الصوفي قد أبتل جزءٌ منه، ارتديته وانزلقت داخل البرميل، وكان مبتلًا من الخارج ما جعله شديد البرودة من الداخل، وكان القطُ يموءُ، وكنتُ أناديه من بين أسناني التي تصطك بعضها ببعض، وكانت رائحةُ الدم تفوحُ من فمي، ولا أعرفُ إذا ما كان الذي تفيضُ به عيني الآن دمعًا أم دمًا.
كانت الحرارةُ تطوقُ وجهي، وكان الموتُ يختطُ طريقًا إلى روحي ليستلَّها، ويذهبُ بها إلى السماء، لا أعرف إلى أين يذهبُ بها، وكان هناك نهرٌيقفُ والدي على ضفته المقابلة لي، حاولتُ جمع شتات صوتي لأناديه فيأخذني، اكتشفتُ أن لا صوت لي، حاولتُ أن ألوحَ له بيدي، غيرأن ذراعي كان لا يعملُ، كان يتدلى إلى جانبي فحسب، وكان هناك من يُنادى يا مريم، كان صوتُ أختي، كانت تجري نحوي، أمسكتْ بذراعي ولفته حول عنقها، فاستندت على كتفها حتى بلغنا حديقة كبرى موشاة بالورد،

وكانت هناك طيور ملونة وقصور مذهبة، هنالك أجلستني وذهبتْ لتأتيني بالماء والطعام، وكانت تحملُ ولدًا فوق ذراعها، وكان يبتسمُ لي، وكانت هناك سحابة بيضاء طرية وناعمة قد مالت صوبي كل الميل، وكان على متنها سبع فتيات خفيفات، كأنهن فراشات وردية، أخذن بيدي وحملنني معهن وسبحن في الفضاء، كانت السحابةُ التي تقلنا تمر على أنهار من الفضة المذابة، وتلال خضراء، وخيول بيضاء جميلة ونظيفة ورشيقة، وقصور ذات قباب من ذهب، هبطن عند أحد القصور، وكان سلمه من الرخام، وأبوابه من الفضة، وأقبيته من الذهب البراق، قالوا هذا قصرك، ثم تركنني ومضين وهن يلوحن لي، كانت هناك حديقة من الفاكهة تحيط بقصري، فأكلتُ من شهد الفاكهة حتى شبعت، وارتقيتُ درجات السلم الرخامي، وكانت العصافيرُ تُظللُ بأجنحتها خطوي.

نمتُ في فراش طري ودافئ، وقد ارتديتُ ثيابًا من حرير، وإستبرق ، وكان صوتُ فيروزيُهدهدني ويغني لي،

لي وحدي يغني

سنرجع مهما يمر الزمان وتنأى المسافات بيننا

سنرجع خبرني العندليب غداة التقينا علي المنحنى

لأن البلابل يا حبيبي * هناك تعيش بأشعارنا

* * *

كثيرون كانوا ينادون يا مريم يا....مريم، فتحت عيني، ولم يكن هناك غيري، فقط الظلام ورائحة الدم، ورائحة العطن الطالعة من الخراب، وكانت السماءُ قد توقفت عن ضخ الماء، غير أن سقف المخبأ، كان يقطرُ الماء فوق البرميل الذي أختبئ بداخله أسمع تكتكته فوقي.

وخيل إلي أنيّ مت، وأن الله لم يتقبلْ روحي بعد، وذلك لأن بعض الشوائب مازالت تعلق بها، لهذا ردها لي حتى يكتمل طهرها فيدخلها الجنة التي أراني إياها، كنتُ كلما عطستُ أشعر ببؤبؤ عيني يخرجُ، ثم يرتدُ وكان أنفي يُسربُ الماء.

(٣)

أشرقتُ الشمسُ قربَ الظهيرة وكانت مُبللةً بماء الشتاء مطفأة وضعيفة، كانت تُشبهُ مرآة مستديرة باردة، جاهدتُ للخروج من البرميل، وكنتُ أشعرُ بثقل المعطف الكاكي الذي أرتديه، وكانت رائحته عطنة وياقته يابسةً، كأنها صيغت من الخشب، خلعته ووضعته على رأسي، ولففته حول صدري، وكانت الأرضُ مُوحلةً والسماءُ مغسولةً، وكل شيء مُبتلٌ، كنتُ أرتعشُ، وأبحثُ عن خرقه جافة، أستعملها منديلًا لأجفف بواسطته رشح أنفي، وكنتُ أبحثُ عن خشب جاف، لأشعل فيه النار، لتدفئ أطرافي وعظامي، كلُ الأشياء مُبتلةٌ، كل الأشياء...

مع الوقت استردت الشمس بعض من عافيتها، أخذتُ قطع الخشب وألقيتها تحت الشمس لتمتص رطوبتها، وألقيتُ الخرق فوق البراميل، ما عدت أقوى على الوقوف إلا بضع ثوان، بعدها أشعرُ بتمزق في أمعائي، وتميدُ الأرضُ تحت أقدامي، فأجلسُ من فوري، وتملأ الدموع عيني.

وكانتُ الأمطارُ قد كشفت عن جزء من حصير متهرئ، يرزحُ تحت الأنقاض، كان عليّ أن أرفعَ كومةً من الحطام حتى أستخلصه.

قد يكون جزءٌ منه حالت الأنقاض بينه وبين الماء، كانت هناك حشرات ورائحة عطن وخرق وصفائح فارغة، وتلك الحصيرة القديمة ملوثة بالطين، وكان هناك جلباب لرجل، وفي جيبه حافظة نقود جلدية قديمة،

وكان بداخلها صور باهتة لأشخاص ربما أعزاء على صاحب الجلباب، وكانت هناك أوراق نقدية فئة خمسة قروش، تحملُ صورة نفرتيتي، وكان هناك ورقة مالية مُختبئةً وسط الأوراق باهتة الحروف، كانت الورقة المالية من فئة العشر جنيهات، سجدتُ لله شكرًا ولم أعبأ بالأوحال، وكانت سخونة جسدي ترتفعُ مع الوقت، وكنتُ ألهجُ عقب إزاحة هذه الأنقاض، وأنا أشعرُ كأنها أنفاسي الأخيرة.

في المساء كانت الحفرةُ التي استخدمها للتدفئة لا تزال لينةً، والخشب لم يتخلصُ من كل ليونته بعد، وكان هناك أكياس من البلاستيك، جمعتها بالأمس من القمامة، عبأتُ منها جوالا آمل أن يشتعلَ، حتى تتبخر ليونة الخشب، فيشتعل بدوره هو الآخر.

وكانت هناك أعقاب الشموع التي سبق وأن جمعتها، ورحتُ أُشْعِلُها تباعًا، وكان القط بجواري، كلانا يؤنسُ وحدة الآخر، وكنت حين أنهنه بالبكاء، يُحسُ بي ويتمسحُ بي، ويموءُ بحزن، وكنتُ أحاولُ جاهدةً ألا أجعله يحزنُ، أمسحُ على شعره فيقفز في حجري، ويدفئ كلانا الآخر كنت أحاول أن أشعره بالأمان الذي أفتقده تمامًا.

بعد عدة محاولات نجحتُ في إشعال النار، كنتُ أقربُ كفيَّ وأدخلهما في اللهب، وكذلك قدمي، وكنتُ أحلمُ بحمام دافئ وصابون معطر، ومنشفة نظيفة، وملابس داخلية جديدة أحلم بالمستحيل

لماذا خانني يوسف ذلك الذي مشيت إليه حافية على الجمرات..لماذا ؟ أتساءل بحرقة الآن ؟

***

حبيبي لعلك نسيتني بينما تعيشُ في أنفاسي ودقات قلبي الذي ينبضُ بأسى، منذ تركتني.

نسيتُ كل ما حلمنا به، ألقيت به هنالك في المحيط.
ولعلك الآن تتأبطُ ذراع إحدى الشقراوات، وتذهبان إلى إحدى الحانات ترقصان وتشربان الخمر وتضحكان، ثم تأخذك إلى فراشها، قد تذكرني وتضحكُ ساخرًا مني، تقولُ تركتُ في بلادي فتاةً بلهاءً تنتظرني هناك فوق الشاطئ، شاطئ أرض الميعاد كما يحلو لك تسميتها يا يوسف، الآن ستبدو لك أحلامنا سخيفة وغبية.
آه من قلبي ومن أحلامي ومن عشقي المجنون، جميعهم خانني، جميعهم خانني
يا.....أجنحة الشمع الغبية لماذا حلقت بي صوب وهج الشمس الحارقة؟
مكسورة أنا.
* * *
كان الوقتُ مُبكرًا عندما بدأت عربات النقل الثقيل تَمرُ من أمام مخبئي مُحملةً بالطوب والرمال وشكائر الاسمنت وبراميل الماء.
. يتوجب عليّ الآن أن أبحث عن مكان آمن ليس به عمال ، مكان خرب لا يكون به أي من أبناء البشر فلم يعد بالإمكان البقاء هنا ..
القطُ صديقي جاءَ يَجرُ بفمه كيسًا من البلاستيك الشفاف بداخله رغيف من الفينو الطازج ولفافة بها شرائح رقيقة من الجبن الرومي طيب الرائحة، وكانت معدتي قد طلبت الطعام فأكلتُ.
وقلت للقط لعلك يا صديقي سرقت طعام أحد سائقي العربات التي كانت تمر منذ قليل أو بالأحرى سرقت بقايا طعامه.
في الظهيرة جاءت العربة الكارو التي تحملُ القمامةَ، وكان من جاء بها صبي لا يتجاوز عمره الخامسة عشر، يبدو أنه ابن الزبال، ذهبتُ إليه على

مهل، كنتُ أسيرُ إليه بخطوات بطيئة، وكنتُ أجلسُ في الطريق لأستريح، قلت له وأنا أمد إليه يدي بالعشرين جنيهًا قلت : خذني معك.

سألني إلي أين؟

وصفت له المكان الذي أريده.

قلت: على ضفاف الترعة حديقة مهجورة بجوار القنطرة.

قال: المسكونة؟

قلت نعم

قال: اركبي

كنتُ أشعرُ بألم أسفل بطني ذلك، يعني أن الدورة الشهرية أوشكت أن تفيضَ، طوال الطريق والولد يُغني ويُناوشُ الأولادَ الذين يلتقونه في الطريق، يتبادلون الشتائم ويتوعدون بعضهم البعض ويضحكون، والحمارُ يهزُ أذنيه الكبيرتين مُستنكرًا.

نعم هذا هو المكان وتلك هي الحديقة، وهاتان هما النخلتان التوأم إحداهما تميلُ وتستندُ على جدار سور الحديقة.

أنا ركبتُ من هنا، الشمسُ الآن ساطعة لن يقوى الجني وزوجته وأولاده أن يظهروا أمام وجه النهار، لا يستطيعون ولكن من أين لي القوة لأقفز إلى الداخل وأحصلُ علي حقيبتي وأعود؟، من أين؟

قلتُ للصبي قبل أن يُغادرَ سأعطيك عشرين جنيهًا أخرى إذا أعدت لي حقيبتي العالقة في الشجرة داخل الحديقة.

غير أن الصبي تغير في الحال وجهه، وأولاني ظهره وركب عربته، وشدَّ على حماره، وتركني ومضى مُكملا ما تركه من الغناء.

وقفتُ حائرةً وملأت الدموع عيني، وكان على يسار الحديقة رجلٌ يعملُ في حقله، وقد استرعى انتباهه وقفتي الحزينة، وعلامات الحيرة البادية على

وجهي، صعدتُ النخلةَ المائلةَ حبوًا لألقي نظرةً، وأشاهد حقيبتي بعيني، كانت هناك أشجارتين يبست، وهرمت وعقمت وصارت ملهى للثعابين أو الشياطين المتمثلة في صورة ثعابين، أوشكتُ أن أصابَ بإغماءةٍ وسريعًا انهارت بقايا همتي وشعرت بالغثيان، فهبطتُ وتقيّأتُ ما أكلته صباحًا وتقيأتُ معه دمًا فجلستُ القرفصاءَ بجوار حائط السور، وقد تملكني اليأس فطفقتُ أبكي، وألعنُ اليوم الذي التقيتُ فيه يوسف وألعنه، كان الرجلُ يعملُ في حقله، وكان يُبدرُ القمحَ ويغطيه بالشوكة التي يستخدمونها في الحقول لتغطية الحب بالتربة وريه بعد ذلك سألني مُباشرةً عمّا أفعلُ.

ولا أدري من الذي وضعَ الكلامُ سريعًا علي فمي، قلت وأنا ألهثُ هاجمني اللصوص منذ بضعة أيام، فألقيت بحقيبتي هنا، وجئتُ اليوم لأستردها وأمضي قبل الليل، كان قلبي يدقُ وكنتُ خائفةً حد الموت أن يقولَ لي لا يوجد هنا أية حقيبة.

أغمضتُ عيني ودعوتُ الله أن يردَ لي حقيبتي.

طال الوقت والرجل لا يحرز تقدمًا أولعلي أشعرُ بطول الوقت لشدة قلقي نظرًا للهفتي، كان الرجلُ يُغمغمُ بكلمات لم أتبينها، ثم فتحت عيني على صوته وهو يقول: حقيبتك يا ست.

يااااه احتضنتها وبكيتُ وخرجت كلمات الشكر مُبللةً بدموعي، كنتُ أبكي وأشهقُ لم أصدقْ أنها معي سألته عن المكان الذي أنا به قال: أنت بين المنيا وبني سويف قلتُ: كيف الطريقُ إلى القاهرة؟

قال: أمامك مشوار طويل حتى تصلي إلى موقف سيارات الأجرة، وأشار بيده إلى الجهة التي علي أن أسلكها لأصل إلى تجمع العربات التي تصطف شرقي القنطرة.

قال: هذه العربات تتجه إلى ببا، وهناك ستجدين بجوار محطة السكة الحديد عربات بيجو وميكروباص مُتوجهةً إلي القاهرة.
ثم قال: مِنْ أين الست؟ .. مشيتُ ولم أردْ...!
*****

في ببا وبجوار المحطة كان السائقون يُنادون: مصر... مصر.
ركبتُ مع الراكبين، وشعرتُ بنظراتهم المشمئزة، وكان مظهري مُروعًا وملابسي قذرة ورائحتي شنيعة، كان عليّ أن أتجاهلَ هذه النظرات، وأن ألتصقَ بنافذة السيارة، حتى لا تتأذي أعين وأنوف الركاب.
في القاهرة سأبتاعُ الملابس الجديدة، وأذهبُ إلى أحد الفنادق المتواضعة لأستحم وأبدل ملابسي وأستريح قليلًا.
فتحتُ حقيبتي لا تفقد أشيائي للمرة الثانية، أو ربما الثالثة، تأكدتُ من وجود بطاقة هويتي ودفتر يوسف الوردي وصور عائلتي وعقد الأرض. كان يوسفُ يقولُ: أرض ميعادنا يا مريم، حتى إذا هبت الرياح وحجبت عنا الرؤيا وسلكنا طرقا لئيمة، ومراوغة، وغريبة، وُحجب كل منا عن الآخر ستبقى هذه الأرض لتجمعنا من جديد، مهما بعدت المسافات وتعاقبت الأيام والشهور والأعوام، تجمعنا الأرض.

(٤)

عدتُ الآن إلى القاهرة، هذه المرة عدتُ بمفردي، يوسفُ ليس معي، اشتريتُ ثوبا" جديدةً وطرحةً، وبعض الملابس الداخلية وحذاءً وفوطًا صحيةً وجلبابًا لأنام به، وكشكول سلك من الحجم الكبير، ونصف دستة

أقلام، أوقفتُ تاكسيًا وطلبتُ منه أن يوصلني أحد الفنادق المتواضعة لأبيت فيه صمت قليلًا ثم قال: اركبي.
وقال: إنه يعرف فندقًا بجوار مطعم نعمة، أومأت بالموافقة.
توقف عند أحد المساجد قال وهو يفتح باب السيارة : لا يمكن أن يقبل بك الفندق نزيلة عنده ، وأنت على هذه الهيئة
(لا مؤاخذة يا ست) توجد هنا دورات مياه خاصة بالنساء ملحقة بالمسجد ،
فهمت ، كان معه الف حق
***
لما وصلنا أمام الفندق أعطيته البطاقة وقلتُ لنرى إذا ما كانت هناك غرف خالية، وطلبتُ من السائق أن ينتظرني فلما توجهتُ إلى موظف الاستقبال نظر إليّ بعين القلق والريبة، لم يرق له مظهري على أية حال .
أعطاني مفتاح الغرفة بترددٍ، وكاد ألا يفعل، عند ارتقاء السلم خشيتُ أن يتراجعَ عن موقفه، ويوقفني عن الصعود، ويحولُ دون بلوغي الغرفة، وكنتُ مُتعبةً، وعلى شفا الانهيار.
لم أصدق أني في غرفة نظيفة، وأن الماء الدافئ يتدفقُ فوق رأسي وجسدي، وأني أغسل شعري بالشامبو، وجسدي أغسله بصابون عاطر، وأتجففُ بفوطةٍ ناعمةٍ ونظيفةٍ، وأرتدي الملابس الداخلية والجلباب الجديد، وشعري المتشابك أصففُه وأتمددُ بأساي، على فراش طري ووسادة نظيفة وناعمة، صففتُ عليها صورة أمي ويوسف وأخوتي، صففتهم بجوار رأسي وأمام عيني، وفاض دمعي وتسرب داخل فتحتى أذني، كان حلقي مُحتقنًا وحول أنفي كان مُتلهبًا التففت بالبطانية ونمتُ،

لأول مـرة أنـام بالليـل، لا أدري كـم مـن الوقـت نعسـتُ، ربمـا سـاعة أو ساعتين.

أثناء نومي جَاءَ الجِنّيُ الذي يركبُ الدوامةَ، وكان يحومُ حول فراشي، وكان برفقتـه تلـك الجنيـة المتلفعـة بثـدييها، وقـد أنشـبت أظافرهـا القـذرة في أمعائي، فصرختُ ونهضتُ مُفزَّعةً فهربا، وكانت معدتي وأمعائي تتمزقُ من شدة الألم، وشعرتُ بغثيان، وجريتُ إلى الحمام، وأنا ممسكة بكلتا يدي أسفل بطني، تقيأتُ دمًا، وسقطتُ داخل الحمام، بعد أن غامت الرؤيا وأظلمت الغرفة، وراحت تدورُ بي كدوامة كبرى، وبقيتُ مكاني إلي أن توقفت الغرفة عن الدوران، بصعوبة نهضتُ وكان هناك كرسي قريب من الحمام، بجوار المرآة، جلستُ عليه لبضع دقائق، ثم ارتديتُ عباءتي الجديدة، وتركتُ الغرفة وهبطتُ درجات السلم مُستندةً إلي الدرابزين، سألتُ موظف الاستعلامات عن طبيب باطنة، فأجرى اتصالًا هاتفيًا بإحدى العيادات القريبة، وكانت الساعة قد تخطت العاشرة، وكانت آلام بطني تتزايدُ مع الوقت، جلستُ بين المرضي حتى حان دوري قال الطبيب بعد أن أنهي كشفه: إن الحزن والكآبة والصدمات النفسية جميعها تجعل المعدة تُفرزُ مادةً تجعلُ العصارة تتحولُ إلي ما يشبه حامض الكبريتيك، ما يعرف لدى العامة بماء النار، فيكون ضررها على جدار المعدة خطيرًا ومُباشرًا، وما ينتجُ عنه في كثير من الحالات قُرحة المعدة وتهرؤ الأوردة، فيحدث نزيف بعضه يخرجُ عن طريق القيء، وبعضه يصبُ في الأمعاء فيحدثُ هذا الألم، كتب لي روشتة لأدوية وعقاقير بعضها أتناوله قبل الأكل، وبعضها بعد الأكل، وطلب مني عمل أشعة وتحاليل ولم أفعل، حاولت السفر إلى مطروح، فلم تسعفني قواي، فبقيتُ ليلة أخرى في الفندق.

* * *

لو علم اني ممرضة لوفر على نفسه الكثير من هذه الثرثرة ..!

(٥)

في العربة المتجهة إلى مرسى مطروح في المقعد الأخير، كان يجلسُ اثنان من الركاب، فلما ركبتُ تنفسا الصعداء خاصةً أولئك الذين يجلسون في الصفوف الأولى، وقد طال انتظارهم.

قال السائق وهو ينطلقُ: إنه الشتاء يجعلُ حركة السفر إلى مطروح بطيئةً، ولم يعقبْ أحد من الركاب، وسلكَ السائقُ الطريق الصحراوي، وكانت الغيومُ تملأ السماء، فتحجبُ الشمسَ، وغاص كل منا في عالمه الخاص، وأصبح الصمتُ سيدَ المكانِ.

بعد ثلاثة ساعات تقريبًا بدأ البحر يلوحُ لنا بلونه الأزرق وأمواجه الهادرة ورائحته الغامضة، وكانت العربةُ تسيرُ بمحاذاته، وكان مهيبًا وكبيرًا.

قال السائق ليقطع الصمت بأننا الآن في الاسكندرية، وقال إننا نقترب من إحدى الكافتريات، لمن يريدُ أن يدخلَ دورة المياه، أو يحتسي الشاي، أو يشرب حجر معسل.

* * *

بعض الركاب قد غادر في بلدة دار الحكمة، وبعضهم غادر في العلمين، وواصل الباقون إلى مرسى مطروح.

وبدأت السماءُ تمطرُ، وكان وقعها فوق سقف العربة ينذرُ بغزارتها، وكذلك سيلها فوق زجاج نوافذ العربة

في موقف السيارات بمطروح، كانت هناك عربات أجرة تحمل اللون الأبيض والسماوي، تنتظرُ الركابُ القادمين من السفر، ركبتُ إحداها

وطلبتُ من السائق أن يتوجه بي إلي أقرب فندق، إذ لم يكن بإمكاني السفر إلي واحة سيوة، وقد أقبلَ الليلُ، وكان الجوُ شديدَ البرودة، وكنتُ أرتعدُ وأنا أعطي موظف الاستقبال بطاقتي، لينهي إجراءات التسكين، كان الأسانسير دافئًا، وسبقني العامل وفتح باب الغرفة، ثم أعطاني المفتاح وغادر.

وحدي والليلُ والسماءُ مُغلقة تمامًا، أحملقُ في زجاجها، أمسحها بدمعي كل مساء عليّ أبصر بريقًا يمنحني شيئًا من الأمل بأن صوتي قد سمع لكن ..لا نافذة تفتح، ولا بريق يشع زجاج، في زجاج، مغلق، مغلق تمامًا.

* * *

في السجن، والحديقة المهجورة، وبيت القس، والخرائب والمقابر، هنالك قتلت روحي وبقي جسدي يسير في اتجاهات عدة وبعشوائية تامة، تجربة مريرة ومعركة غير عادلة.

غير عادلة تمامًا لا أدري إلام تنتهي؟

الليلُ خارج الشرفة الزجاجية مُبللُ بالمطر ما يزيدُ من إحساسي بالبرد، المدينة وحيدة مثلي وحيدة لا أحد في شوارعها يسير ولا صوت يسمع، أسدلت الستارة، باكرا سأذهب إلى سيوة، ترى بماذا أسمي رحلتي هذي، أهو البحث عن مكان للانتماء إليه أم أبحث لنفسي عن مقبرة هناك حيث الموت تتلاحق خطواته ويوشك أن يدركني، أم أتخذ منها

مخبئًا جديدًا؟

لن أنام، أحضرتُ أوراقي وقلمي، سألدُ مسيحًا، أنا العذراء البتول، سألدُ من رحم الكلمات مسيحًا، يحملُ دعوتي، ويبلغُ رسالتي، ويجوبُ المدن والقرى والنجوع، قد يُغضب قولي هذا شيخ الأزهر، والبابا شنودة ، سيهاتف أحدهما الآخر، ويلتقيان ويتبادلان نظرةً، مفادها إني خاطئة،

أستحقُ عقاب الدنيا وجحيم الآخرة، لست مُحترفة كتابة ولا علم لي بقوانينها، وفنونها وقواعدها، لكنها قصتي أكتبُها بصدقٍ، قد تحتلُ خيباتي وعذاباتي، وأحلامي التي أريقت هنا وهناك ، قد تحتل مساحةُ لا بأس بها، لكن لا يهم سأكتبُ وسأبدأ، الآن ولكن إليكم وصيتي في حال مت فأنا أُحمل من يعثرعلى أوراقي

أمانة أن يحرص على تسليمها للسيدة ـ جمالات عبد اللطيف ـ هي كاتبة من بلادي ، من ساكني القرية المجاورة لقريتي .. وفي حال وصلت أوراقي ليد السيدة جمالات عبد اللطيف ، فأنا أُحمّلها أمانة تبليغ حكايتي للعامة من دون زيادة أو نقصان .. مسموح لك أن تصيغيها بلغتك ، أما الأحداث ومواقيتها ، وترتيبها فلا يحق لك العبث بها ، أنت هنا لست الكاتبة .. أنت القابلة التي سألد مسيحي على يديها ..هذه قصتي أنا ، ليست قصتك .. ولا من وحي خيالك تزيدين فيها وتنقصين ، تضيفين وتحذفين كما يحلو لخيالك ..هذه حياتي ، عمري ، سنواتي ، دمي ولحمي ، وخلاياي وعظامي بؤسي وفرحي ووجعي وأحلامي ، وخيباتي ..؛ فلا يصح ولا يحق لك المساس بها وإجراء ولو تعديل بسيط بمجريات أحداثها

أُسامح تماما" في موتي ، ولكن لا أسمح بموت قصتي ، إذ سأبقى ما بقيت حكايتي يتداولها الناس ،

المتعاطفون منهم والغاضبون ، اللاعنون ، والمتسامحون ، القساة والمشفقون .

(٦)

الطريقُ من مطروح إلى سيوة قطعه السائق في ثلاث ساعات ونصف الساعة، السحبُ تركضُ في السماء، والشمس تشرقُ حينًا، وتختبئ خلف

الغيوم حينًا آخر، سائقو العربات ينادون عن البلدان التي يمرون بها أو يذهبون إليها، أسرعتُ صوب العربة التي ستتجه إلى قرية: طن ضار، ركبتُ مع الراكبين، وكانت النسوةُ منتقباتٌ، والركابُ يتحدثون بلغة لا أفهمها ما أشعرني أكثربالغربة، وكنتُ أتابعُ الطريقَ الذي تحفه أشجار الزيتون والنخيل بكثرة، قطعان من الأغنام خلفهم الصبية يرعونهم يبتسمون للركاب، وأحيانًا يلوحون بأيديهم، وجوههم سمراء وابتسامتهم رائقة، توقف السائق عند قرية: طن ضار، فتأهبتُ للنزول من العربة، وقد سبقتني إحدى النساء، اقتربتُ بخطواتي منها وسألتها عن منزل الحاج علي ككاي، فهمت المرأةُ من لغتي أني غريبة، وكان أحد الصبية يمر من أمامنا فاستوقفته المرأة، وتحدثت إليه ولم أفهمْ من حديثها إلا اسم الرجل الذي أسعي للقائه، مضى الصبيُّ أمامي في طرقات مُترية، وكانت أقدامي تغوصُ في تراب مُختلط بالرمال، وكنتُ مُتعبةً، وكنتُ كمن يسير في وادي الأحزان بين جبال من الهموم، تسّاقطُ عليه أحجارثقيلةً، تُدمي الرأسَ وتُهشمُ العظامَ.

كانت البيوتُ كلها مُشيدةً من الطوب الحجري، ومعظمها من طابق واحد وسقفها من الجريد وفلقات النخيل، أخيرًا أشارالصبي بيده صوب أحد البيوت التي باتت قريبةً منا وقال كلمات فهمتُ منها أن ذلك هو بيت الحاج علي، وكان منزلهُ يتصدرُحديقة الزيتون التي يمتلكها، وكانت مُسورةً بالطوب الجيري، ولها باب من الحديد أيضًا ، كان البابُ مُواربًا، فنادى الصبي وخرجتُ إلينا امرأة في ستينيات العمر، كانت المرأة مُنتصبةَ القامة سمراء طيبة القسمات، في فمها سِنّان من الذهب الأصفرقال لها الصبي:

اختاتلنتي إتساوال ديدون نلني: (هذه السيدة تسألُ عنكم)

قالت المرأةُ: السلامةُ تلحال (حمد الله على السلامة كيف حالك).
أخرجتُ من حقيبتي ورقةً مَاليةً، فئة خمسة جنيهات ومددتها للصبي، وأنا أشكره، وقبل أن يمدَ يده، نهرته المرأةُ وهي تصيحُ في وجهه:
أّفي (عيب).
أخذتني المرأة إلى الداخل، وكانت الدار ترتفعُ عن المزرعة، عدة درجات، وكان هنالك بط ودجاج يسعى في المزرعة الواسعة، ودعتني المرأة للجلوس في المربوعة (غرفة الضيافة)، وكانت الغرفةُ كبيرةً، تكتسي أرضيتها ببسطٍ من صوف الأغنام، ومراتب إسفنجية مفرودةً، بطول الجدار وقد اصطفت فوقها المساندُ وكانت المرأةُ تُرددُ من وقت لآخر كلمة إنشيطه (مرحبًا)، ثم جاءت بطاولة قصيرة الأرجل، وضعتها أمامي، ثم أحضرت زجاجة مياه، وقالت: سو أمان؟ (أتشربين ماء؟).
تناولتُ منها الماء، وأخرجت من حقيبتي كيس الدواء، وتناولتُ قرصًا لمنع القيء، ثم أحضرت صينيةً على متنها طبق من عسل البلح، وقطعة من جبن الغنم، وبعض الزيتون وخبز طازج قالت:
وهي تضعه أمامي : إتشي (كُلي).
كانت المرأةُ طوال الوقت تتحدثُ إلي وكنتُ لا أفهم شيئًا ممّا تقوله فقط أبتسمُ وأومئ برأسي من دون فهم.
****
وَلدتُ ناقة الحاج علي، واطمأنَّ عليها وعلى صغيرها، هذا ما شغله عن لقائي لبعض الوقت، وكانت برفقته ابنته وتُدعى زمزم، كانت سمراء يشوب سمرتها احمرارٌيشي بالصحة والحيوية، وكان الحاجُ (علي ككاي) عجوزًا صلبًا عالىَ الهمة مملوءًا بالنشاط، وكانت عبارة (أنشيطة) مرحبًا.

تسبقُهُ إلى غرفة الضيافة، نهضتُ على أقدامي لمصافحته، وعانقتني ابنته، وكانت تتحدثُ بلغتي ولغتهم أيضًا، كانت خفيفةَ الرُوحِ، وفي عينيها بريق الذكاء قالت، وهي تُشيرُ إلي نفسها: أختك زمزم

قلت: مريم ... أختك مريم.

قالت زوجة الحاج علي، وكانت تشعرُ تمامًا بهلاك صحتي.

عنعن ربيح (تفضلي استريحي).

جلستُ، وكنتُ مُرتبكةً، لا أعرف كيف أقدم نفسي؟ وماذا أقول؟

قالت زمزم وبشكل مباشر: كنت تريدين أبي يا أخت مريم.

قالت هذا وابتسمتْ ونظرتْ إليّ فيما معناه عرفي نفسك وما جئت بشأنه،

وأسقطَ في يدي ماذا أقول؟ اسمي مريم أحمد؟ لا يعرفها

أقول خطيبة يوسف؟ وأين هو يوسف؟

وهل ما زلت خطيبته ؟ لم تكن هناك خطوبة؛ كانت خطة، خدعة، تمثيلية، مكَّنته من الحصول على تأشيرة سفر لأمريكا.

.....

خرجتُ من هذا المأزق بعد أن أخرجت عقد الأرض الذي يحملُ اسمينا أنا ويوسف.

قويت حجتي واستويتُ في مجلسي وقد أكسبني ذلك قوة وثقة

قلت: أتيتُ إليك لمعرفة مكان الأرض، وأرجو أن تعينني في شراء بعض الأشجار لغرسها في الأرض

قال: (ماشي جابد ديدم) أنا سأقف معك.

قلت: وأتعشم أن تجدَ لي مسكنًا قريبًا منكم لأقيم فيه قال:

(قيم ددنا) أبقي معنا.

في المساء كُنا نتحلقُ حول النار، وكانت زوجة الحاج علي قد وضعت لبن الناقة التي ولدت في إناء قربته من النار، وإن هي إلا دقائق، وأصبح لبن - السرسوب - قُرْصًا، طيب الرائحة أحضرت سكينًا، وقطعت القرصَ إلى قطع متوسطة، وزعتها علينا، وكان مذاقه طيبًا، وكانت أخشابُ الزيتون المشتعلة تشعُ بالدفء، وكانت البُسطُ البلاستيكية التي نجلسُ عليها قد صارت حوافها ساخنة.

حدثني الحاج علي: أن نفرًا من رجال القبائل قاموا بالسطو على الأرض، فقام بعقد جلسة عرفية مُكونةً من مشايخ القبائل، وتم تسوية الأمر، وتم استخلاصها من أيديهم، وما أن تم جلاء هؤلاء، حتى فوجئ الحاج علي بمن يُخبره أن أحد اللواءات يمتلكُ قطعة أرض كبيرة، في الجوار ما جعله يَضمُ هذه القطعة لأرضه، وقال إنه ليس مُتأكدًا من هذه المعلومة، وقال عندما يَحلُ أمشير، ونبدأُ في تشجير الأرض سيتضحُ كل شيء.

همستُ في خاطري، وأقسمتُ ألا أدخر جهدًا في البحث عن العمل، لأتمكن من تسوير الأرض وزراعتها، لأنه يومًا سيعودُ يوسف.

وإن ذهبَ لأبعد من أمريكا سيعودُ، صحيح أنه لن يعود لي، لكنه سيعودُ لأرضه وسيجدني ها هنا أقفُ على هذه الأرض، وقد أصبح لي شجرةُ أُطعم من ثمارها، وأستظلُ بظلها، وبيتُ صغيرُ يسترني، ووردةُ ألثمُ أوراقها، وستكون المهزوم

يا يوسف، وسأكون المنتصرة، ستتجاهلني كي لا تثير حفيظة زوجتك، وسوف أتجاهلك كي لا أثير حفيظة كرامتي، وكبريائي الجريح، وسيخلو كل منا إلى نفسه، وسنبكي وإن اختلف دمعانا، سأكون في حلٍ، وستكون في ورطةٍ حقيقيةٍ، ليس هناك أكثر مرارةً من ورطةِ خيانة العهد، وضياع

الحلم، كم أُشفق عليك، سأرفعُ رأسي؛ وتخفضُ عينيك في المقابل، ما أتعسَ ذلك

* * *

أخذتني زمزم إلي غرفتها، وكانت صغيرة ودافئة إلى حد ما، وكانت كباقي البيت من الطوب الحجري وسقفها من الجريد وفلقات النخيل، تتدلى منها لمبة كهربائية

قالت زمزم: إن هذه الغرفة تخصها هي وشقيقتها – غزال – وقالت إن غزال تزوجت في العام الفائت من رجل ليبي، وأن ابن عمه طلبها هي للزواج، غيرأنها رفضت أن تتزوجَ خارج الديار، وقالت إنها خطبت لابن تاجرفاكهة من أقربائها الذين يقيمون في مطروح، وأن زفافها سيكون عقب محصول الزيتون، وقالت إنها ستريني صورة خطيبها في الصباح، وكنتُ مُتعبةً وألم شديد في عظامي كلها.

تتعاقب ساعات الليل والألم يحول بيني وبين النوم، وكنت غيرقادرة على أن أقول آآآآه بملء ما بي حتى لا أزعج تلك الراقدة بجواري.

غفوتُ قرب الفجر، ثم صحوتُ وإذا بأحجارالغرفة تشتعلُ الواحد تلو الآخر، صرختُ لكي أُنبه زمزم قبل أن تلتهمنا النارفلما استيقظت انطفأت النار، وزالت آثارالدخان، قالت زمزم وهي تحوقل وتبسمل بأنني كنت إزاء كابوس، وقالت من خلال تثاؤبها، وهي توليني ظهرها اقرئي آية الكرسي قبل أن تنامي.

كان ما رأيته حقيقيًا غيرأني لم أعقبْ على ما قالت، أخفيتُ وجهي في الغطاء، وأغمضتُ عيني، وحاولتُ النومَ، لكن يدًا رفعتُ الغطاء عن وجهي، واشتعلَ السقفُ فوقي، وتدلي اللهيبُ، وكادَ يَحرقُ وجهي، وامتلأت الغرفةُ بالدخان، وكان الجنيُّ يركبُ الدخانَ، والمرأةُ الملتفعةُ بثدييها قد

أفرغت أجولة من الثعابين الطويلة، وراحا يقيدان ذراعي وأرجلي بالثعابين، وكنتُ أقاومُ، وكانت النيرانُ تحيط بى ، كنتُ أصرخُ بجنون، وسم الثعابين يسيلُ علي يدي ورجلي، وهما يُحاولان فتح فمي ليضخ فيه الثعبان سمه، وكانت زمزمُ تقولُ افتحي عينيك.

أقولُ وأنا أبكي لا أستطيع سيضخون السم في عيني، تقولُ افتحي عينيك، افتحي عينيك.

في الصباح وفي الغرفة المجاورة التي تخصُ سنوسي شقيق زمزم، وصديق يوسف كان هنالك اجتماع مغلق لزمزم وأبويها قطعا ستطلعهم على ما كان مني ليلة الأمس، ومؤكدُ سترفضُ المبيت معي مُجددًا، وقد يقررون رحيلي عن ديارهم، لم أجرؤ على الخروج من الغرفة، ولم أتبين فيما كان قرارهم بشأني، فهم يتحدثون بلهجة لا أفهم منها شيئًا.

عُدْتُ للفراش، وادعيتُ النومَ، وسمعتُ صوتَ صرير البوابة الكبرى، وتساءلتُ بيني وبين نفسي: هل خرج الحاج علي في هذا الوقت المبكر ليأتي بسيارة تقلني إلى موقف العربات المسافرة إلى سيوه لأعود من حيث أتيت أم ذهب ليبلغ عني؟

الحيرةُ والقلقُ يأكلان عقلي ويمزقان أعصابي، لا أعرفُ كم من الوقت مروأنا على حالتي هذي.

أيقظتني زمزم، وكانت علاماتُ الأسى تبدو جليةً على وجهها، وكان يملؤني الخجل فقد أفزعتها وأرَّقتها.

قالت والدي ينتظرك في المربوعة (غرفة الضيافة)، ثم أضافت ارتدي عباءتك وضعي هذا على وجهك، أعطتني نقابها.

كان بالغرفة ثلاثة مشايخ بجلاليب بيضاء وملامح وقورة ولحى خالطها الشيب، أشاروا إلي فجلستُ من حيث أُمرتُ، وكان هناك إناء فخاري ملؤه

جمـرات تتصـاعدُ منـه رائحـة البخـور، وإنـاءُ مملـوء بالمـاء أُضـيفَ إليـه قطراتُ من المسك الأبيض،

بدأوا بقراءة الفاتحة ، ثـم الزلزلـة وآيـة الكرسي ، وآخر آيتين من سورة البقرة ،ثم توحدتهم أصواتهم وارتفعت قليلا"

: (قولـوا ءامنـا بـالله ومـا أُنـزل إلينـا ومـا أُنـزل إلى إبـراهيم ، وإسـماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب والأسباط وما أوتي النبيون من ربهم ،لا نفرق بين أحد منهم)

وكنـتُ مُغمضـةَ العينـين، وكـان قلبي يفـيضُ بالـدمع، فتمتلئ بـه عيني، وينخرطُ على خدي، ويقطرُ في حجري، منذ متى وأنا مهملة مطاردة ، أبحث عـن الأمـان .. عـن الأسـرة ، عـن المكـان الآمـن .. منـذ متى ؟ وكانـت الجنيـةُ ورفيقها وثعابينها قد استحالوا إلي رمادٍ مطفأ.

لا شك أن الليل والخوف والظلام والألم والوحدة ، جعلوا مخيلتي تنتج هذه الكائنات المرعبة .

بعد الانتهاء من جلسة القرآن، أخذتني زمزم وأمها وأحضرتا طستًا من الألمونيوم، وأعانوني على خلع ملابسي، وقامتا بصب الماء الذي قرأ عليه المشايخ، علي رأسي وكامل جسدي، ثم قامتا بدهن كل جسدي بالمسك الأبيض، فارتديت ملابسيُ، وكنتُ أرتعدُ من البرد، وألقت عليّ زمزم ببطانية أخرى، ونمتُ لساعات طويلة بعمق من دون كوابيس وأيضًا من دون أحلام.

* * *

منتصف أمشير حصير النهار تتسعُ رقعتها، والشمسُ تكتسبُ بعض العافية، والأرضُ تتهيأ لاستقبال شجيرات وليدة، تبحثُ عن رحم حنون في الأرض، لتكمل دورتها، ويكتملُ نموها أشجار زيتون ورمان ولوز وفسائل

نخل وأشجار ظل وورد، الناسُ يلاحقون أرزاقهم، منذ الصباح الباكر، كل حسب طاقته ومهارته ومعرفته حتى ينسحب النهار، وكنتُ قد أصبحتُ أعشقُ المكانَ، أرضه وسماءه ، ليله ، وقمره ، ونخيله وأشجاره.

وكان قد وُلِدَ علي يدي ثلاثة صبية وأربع بنات من أقرباء الحاج علي، وكانت معدتي قد تحسنت، وأثرت إيجابًا على كامل جسدي، ويرجعُ الفضل في ذلك لله، ثم لثمرات البلح السبع، وملعقة زيت الزيتون وكوب من لبن الناقة أتناوله قبل الإفطار كل يوم.

(٥)

ثمة أيام لثقلها تأبي أن تتزحزحَ، وثمة أحلام لعظمها تأبي أن تتحققَ، غير أن الأحلامَ الصغيرةَ القابلةَ للتحقيق تمنحُ نفوسنا بعض السرور الذي من شأنه أن يُخففَ من وطأة الأيام.

غدًا هو أول يوم لي في العمل، حيث سأعملُ في مستوصف سيوه الخيري، وسأتقاضى راتبًا لا بأس به، سيكفي حاجاتي، وتلك نعمة لمن هم مثلي وعلى حالتي.

مطلع الأسبوع القادم بعد أربعة أيام سيعقد قران زمزم التي أصبحت صديقتي المقربة، وقد ذكرت هذا في قصتي التي انتهيت من كتابتها أقصدُ من كتابة أحداثها حتى الأمس، أما الغد فلا أعرفُ ماذا سيحدث فيه فهو على أية حال لم يأتِ بعد؟!

* * *

في مزرعة الحاج علي عين ماء تفيضُ بمياه دافئة، شيء يشبه المعجزة، كانت تحوطه ثلاث نخلات، وكان صغير الناقة يجري بأرجله الصغيرة، كأنه يستطلعُ المكان، وأمه ترقبه، تجتر الطعام لتعيد طحنة بين فكيها، وهو

يجري وراء القطة، ويشاكس البط ويسابق الأرانب، وعين الناقة مسرورة بصغيرها المدلل.

ترى كيف حالك يا يوسف ؟ وكيف تعيش أيامك؟ وهل أخطر ببالك ولو لقليل من الوقت؟ ولو على سبيل السخرية من تلك الساذجة التي ارتقيت بقدمك ظهرها لتصل لحلمك بالهجرة؟

كثيرًا ما طلبت من الله في صباحاتي ، ونهاراتي، وليالي الطوال.

طلبتُ منه أن يجعلَ بيني وبين ذكراك جبالا من النسيان تحجبك عن ذاكرتي، لكن تمر الأيام بساعات نهارها، وليالها وأنت كما أنت تعيشُ بين أنفاسي، وفي دمي ، حاضرة ذكراك في كياني كله تحطم في طريقها كل ما أتوهَّم من تناسي ومن تلاهي، ومن إنكار، أنا لم أطلبْ من قلبي المعذب ولا من نفسي الممزقة، ولا من روحي المتألمة، لم أطلبْ منهم انتظار عودتك يا يوسف، ولكنهم يفعلون دون إرادتي، يفعلون ... والشوقُ لصُ، يسرقني إليك كلما غفوت أو تناسيت.

****

أتسللُ إلى المزرعة، أتخذُ مجلسًا بين أشجار الزيتون البعيدة، وأصطحبك معي عبر دفترك الذي يحملُ مختاراتك، ويحملُ رائحتك. يحمل أكاذيبك ، وسمومك بنكهة الورد وطعم الشهد ، ولون النقاء

أضمُ وريقاته إلى صدري، وأشمُ رائحتك فيه، وأصغي لهمسك من خلال قراءتي،

(أشتاقُ إليك يا مريم حتى وإن كنت بصحبتك.. أشتاق إليك

أفتدي العمر كله بلحظة لقائك.

ما أشقى أيامي من دونك حبيبتي وما أفقر حياتي، وإن أعطوني كنوز العالم

وما أضيق دنياي وما أمر عيشي، وإن ملؤوا فمي برضاب الشهد ليل نهار، أنت السعادة لمن شقي.. والغنى لمن أجدبت حياته،.. والعذوبة لمن تمرر عيشه ..

أنت ليوسف الحياة، كل الحياة.)

.كم كان ذلك متقنا ، وذكيا ، وجدَّ خبيث.. تستحق عليه جائزة كبرى في التمثيل

. أضحكُ بمرارة، يا لسذاجتي .. جذبتني كلماته، واخترقت معانيها قلبي الساذج،

ما جعلني أغزلُ منها خيوطًا من حرير، تصعدُ بي إلى عنان السماء

لكن .. سرعان ما تمزقت تلك الخيوط الوهمية ، الكاذبة ، وألقت بيّ حطاما بين الأوحال

(٧)

بدأ العد التنازلي لحفل عقد قران زمزم، وكان وجه زمزم يتلألأ بالسعادة، وكانت طوال الوقت تتمنى لي السعادة.

وكان قلبي ينقبضُ عندما تقول: إن الله سيرزقني بالزوج الصالح، تتحدثُ وكأن يوسف أصبح من الماضي،

ولم يعدْ له وجود، تنبهني أنه أصبح ، أو سيصبح لأخرى.. إنها الحقيقة يا قلبي فلماذا تنقبض؟

***

لا يوجد في سيوه أو ما حولها من القرى شبكات للاتصال ولا تعملُ هنا الهواتف الخلوية، ولكي يتواصلُ الأهالي مع ذويهم المقيمين خارج سيوه

يذهبون إلي السنترال العمومي بسيوه لإرسال برقيات أو لإجراء اتصال ما، بالأمس أرسل بدار شقيق زمزم حوالة بريدية بقيمة خمسة آلاف ريال سعودي كمساهمة في تكاليف حفل عقد القرآن، ومنذ دقائق وصل من مرسى مطروح شقيقها سنوسي صديق يوسف، تعلقت زمزم بعنقه، وكان قلبي يدق بشدة وكأني سأصافح يوسف.

قالت زمزم وهي تقدمني له: مريم خطيبة يوسف.

مددتُ يدي لأصافحه فلم ينتبه لها، ولم ينطق بعبارة ترحيب واحدة، وقد فتح عينيه على آخرهما وفغر فاهه، ثم ضيق ما بين عينيه وهو صامت تمامًا مما أحرجني، وتدلت يدي إلى جانبي، ومضيت من أمامه مُتعللةً بتنقية الأرز، فالحفل سيكون بعد الغد وعلينا أن ننجز العديد من المهام اليوم.

مضيتُ وأنا أتساءل والحيرة تنهشُ عقلي لماذا صدم سنوسي حين رآني؟ ألانه لم يكن يعلم بوجودي؟ أم أن يوسف بالغ في وصفي حين حدثه عني ففوجئ بملامح مغايرة للصورة التي تكونت لديه أم إن بداخله يرفض وجودي بينهم، سأكون حريصة على ألا تقع عينه علي مدة إقامته.

جاءت زمزم خلفي لتسترضيني قالت: لا تؤاخذي سنوسي فقد فوجئ بوجودك فحسب، وأقسمت المرة تلو المرة بأنه لم يكن يعلم بوجودي هنا.

ابتسمت من غير سرور وأومأت برأسي بما يعني أني متفهمة.

.. انقبض قلبي وأدهشتني ردة فعل سنوسي حيالي ،

كما أثار ارتيابي

بتلك النظرة التي رمقني بها قبل خروجه المتعجل من البيت

(٨)

في الصباح ذهبت إلى عملي، وكنت قد اعتدت الطريق من (طن ضار) إلى سيوه وأصبح لدي حصيلة من الكلمات السياوية لا بأس بها.
كنت طوال الوقت مشغولة الذهن، أبحثَ عن سكن قريب من عملي ويكون سعره معقولًا وفي متناول راتبي.
إلى أن رزقني الله بتلك الغرفة التي تعلو العيادة التي أعمل بها في بيت. (أم سيدة). تلك المرأة الاسكندرانية
. (أم سيدة) امرأة مرحة تتحلى بالجرأة ولديها حس فكاهي ، ممتلئة القوام ماكرة العينين ، لها حاجبان رفيعان يتحركان مع
شفتيها عند الكلام ، تطرقع بالعلكة ، يكاد فمها لا يخلو منها أبدا .
. لديها هذه البناية ، تقطن في الطابق الأرضي والطابق الثاني تؤجره لهذا الطبيب الذي أعمل معه
التقيها يوميا أثناء صعودي إلى العيادة ظهيرة كل يوم
.ولما كان موسم جني محصول الزيتون سيتم قريبا" ، ليحل موعد زفاف زمزم ، وعليه فلابد وأن أترك البيت قبل أن تغادره هي ؛ فبت أحث الخطى ، وأسرع في إيجاد سكنٍ مناسب لى

***

تحدثت مع زميلتي سلمى عن مشكلتي الخاصة بالسكن، ووعدتني أنها ستكلفُ إخوتها بالبحث عن سكن صغير قريب من العمل ؛ غير أنها لم تفِ بما وعدت به حتى الأمس حيث قررت أن أطرق باب
(أم سيدة) ويا لقدري الطيب أخذتني من فورها إلى سطح بيتها ..حيث غرفة واحدة ودورة مياه سقفهما من ألواح الخشب الحبيبي ، بجدران عارية من المحارة ، وأرضهما لا يكسوها بلاط .. قالت وهي تهز كتفيها : لو تصلح لك

قلت وبلا تردد : تصلح .. تصلح جدا"

قالت: معك متاع ؟

قلت: لا.. وهذه مشكلة

قالت :لا مشكلة ، يوجد سوق في مطروح يمكنك أن تحصلي منه على ما تحتاجينه

. ثم أكملت يمكنك أن تبيتي معنا أنا وابنتي إلى أن ندبر لك ما يلزم للسكن من أوانٍ وفراش وغيره

شكرتها كثيرا لإبدائها التعاون معي.. ولولا أن الغد يصادف يوم الجمعة لأتيت من الغد ..

لكن لا بأس المهم سيكون لي مكاني الخاص وهذا جيد .

يأتي زوجها كل خميس يبيت عندها ثم يعود الجمعة لأم الأولاد ، الساكنة في مرسى مطروح .

.تقول : يكفل ابنتي ويحسن معاملتها ، وكأنها بنت دمه .. ويقوم بتوفير كل متطلباتنا المعيشية كأفضل ما يكون

تقهقه بصوت يشبه قوقأة الدجاج وتقول : ما دام في الحلال يسير الحال ، لا شيء يهم مادام في الحلال

(٩)

.. عند عودتي إلى بيت الحاج علي فوجئت بالجميع ينظر لي نظرة مريبة ، مستنكرة ، متحفزة ، نظرة اتهام

وكأنهم يرونني للمرة الأولى

حتى زمزم كانت تنظر لي بعتاب ولم أفهم شيئا .. كان الصمت لدقائق هو سيد الموقف

أمسكت بيد زمزم وأخذتها بعيدا" لأستبين منها هذا التغيير المفاجئ
قالت: وهي تسحب يدها بغضب : مريم ماتت ودفنت وهذا ما أكده يوسف لأخي
فلما رآك سنوسي هنا أخذ دراجته البخارية وانطلق لأقرب مكان به شبكة وأخبر يوسف بوجودك فقال يوسف:
أنك كاذبة ومحتالة وطلب من أخي أن يبلغ عنك الشرطة بتهمة النصب .
ولكن أبي وأمي رفضا هذا المقترح وقالا : تترك عقد الأرض وتذهب بسلام
*****

امتلأت نفسي مرارة ، وأخذ الغضب يغلي في قلبي ، توجهت بكل غضبي ومرارة نفسي إلى سنوسي وكان يصلح
شيء ما في دراجته
كان صدري يلهج ، وذقني يرتعد ، وكل السدود الداخلية التي أقمتها لاحتجاز البكاء قد تصدعت وانهارت تماما"
قلت : أنا لن أطلب منك أن تخبره أو بالأحرى أن تذكره ، ببيت أحلامنا ، بسوره البرتقالي وغرفه البيضاء ، وحديقته وأرجوحة الأطفال ..
أو الوردة الحمراء ، التي أهداني إياها وبدوري أهديتها للنيل فرد لي الجميل في المساء بأن غسل حزني وشاركني فرحتي القصيرة ،
. ثم كشفت عن ساعدي وقلت لا تخبره عن اسمه المنقوش بالحناء على ساعدي هذا الذي تراه عينك
صحيح بهت لونها ولكنها مازالت تشي ولو همسا" بتلك الليلة .ليلة الحناء المزعومة
. صديقك يا أخي قايض عمري بتأشيرة دخوله لأمريكا ، وأنا افتديت هذا العمر بقطعة الأرض هذي،

و التي سأجتهد لأبني على نصفها بيتا به غرفة وحديقة صغيرة ومقبرة ، أدفن فيها

أما النصف الثاني خاصته فسألقي فيه بقُمامتي

اذهب إليه وأخبره بما تحدثت به .. واطلب منه رجاء" أن يكف عن طعناته الخسيسة ، التي يوجهها إلي بكل نذالة.

.خلعت السلسلة الفضية التي أهداها لي والتي تحمل أول حرف من اسمي .. ونزعت عن إصبعي الدبلة الذهبية التي تحمل حروف اسمينا وضعتهما فوق كرسي الدراجة النارية الخاصة بسنوسي ومضيت أتعثر في خيباتي .

.قلت : لولا أن الوقت تأخر لمضيت الآن ، ولما انتظرت حتى تُشرق الشمس

(١٠)

. (هذا زمان قبيح الوجه كذاب أنا وأنت فيه .. والحق أغراب)

. لطالما أعجبتني هذه المقولة .. لم أكن أتصور يوما أن تكون كالزمن يا يوسف قبيح و غادر و كذاب

مهزومة أنا .. مطعونة في صميم كرامتي ..متعبة.. أنا المُحاصرة في معاناتي ..متعبة ..متعبة

يا لثقل الوقت يزحف على صدري المكلوم بأقدام حجرية .. لا يشيء يثنيه .. لا آهاتي ، ولا توجعي

أبكم أيها الوقت ، ليتك تستحيل الآن إلى سيف حاد ، لتقضي على هذا الألم الكريه الذي يضرب أعماقي بعشوائية

***

.أشرق الصبح .. جمعت أشيائي في كيس من البلاستك .. استعدادا" للرحيل ؛ غير أني لن أرحل قبل أن يستيقظ الجميع
. أنا لن أهرب
. تسللتُ من الباب الصغير المفضي إلى المزرعة الشاسعة التي يمتلكها . الحاج علي .قد يمتص المشي بعض من غضبي
كان صدري جاف كالحطب، وقلبي المضطرب كقيظ الصيف الخانق ، وكنتُ غير قادرة على الجلوس ، أو الوقوف مكاني .. كلي متوتر وحزين ترتفع الشمس قليلا" وأنا أُوغل في الابتعاد تسحبني دوامات متتالية كغمائم سوداء .تقطر غما يغرقني فلا أستطيع التنفس.. لا أستطيع
.من بعيد أقدمت زمزم صوبي مسرعة الهواء يشاكس ثيابها وغطاء رأسها .
ربما بحثوا عني فلم يجدوني .. ربما ظنوا أني هربت
. قالت وهي تلهث وتضغط براحتها على صدرها : بياتي(أبي) ينتظرك في المربوعة
. قبل دخولي المربوعة (غرفة الضيافة) همست زمزم في أُذني : يوسف هنا مشيرة بأصبعها
.اهتاج قلبي وارتفع صوت دقاته .. كيف يجرؤ على مواجهتي ؟ .. كيف ؟ ومؤكد جاء لينكرني أمامهم ، لينتزع مني عقد الأرض
اقتربتُ من غرفة الضيافة في خشية وتردد ؛ غير أن شحنة هائلة من الغضب، دفعت بي دفعا لمواجهته
.صدمت حين رأيته بدا نحيلا" هزيلا" كغصن جاف لشجرة ماتت جذورها ،
ترى هل صحا ضميره بعد فعلته فأصابه الندم ..؟

. وقـف أمـامي مشـدوها ، وتتابعـت موجـات مـن ردود الفعـل المتباينـة حملتهـا تعبيرات وجهـه ، مـن صـدمة ، لـدهشـة ، لـفـرح ، لـشيء آخـر يشـبه البله ، أو الجنون

. ظل مكانه يحدق بي .. وبقيت مكاني ، ولم ينطق أي منا بكلمة

. الحاج علي .قطع حبل الصمت .. سأل يوسف بحسم وهو يشير إلي : أهي مريم ..؟

. أومـأ برأسـه إيجابـا وعينـه عالقـة في عيني ، واضـطراب أنفاسـه يشي باضطرابه الداخلي

. خرجت لفـوري مـن أمامـه قبـل أن أنهـار لهـول الموقـف ، وقبـل أن تخـدع قلبي سحنته الحزينة ..

سـيما بعـد أن أخـذت طاقـة الغضـب تـذوب تـدريجيا " لتسـتحيل إلى نبـع من الشـفقة

. أسـرعت عائـدة إلى المزرعـة هنالـك أسـفل شـجرة الزيتـون حجـر كبير اتخذته مقعدا ، لأستجمع قواي ،

وأرحل بعد ذلك في صمت .

رائحـة يوسـف تقتربُ وتضـوعُ في المكان كلـه، وخشخشـت أقدامـه تسـري فـوق هشـيم أوراق الشـجر الجافـة تقتربُ، وتقتربُ حتى مَثُل أمامي وهمس بحروف اسمي بشوق عمر بأكمله وبحنان يغطي هذه الأرض ويزيد، صوته لا يخطؤه القلب، رفعت وجهي ولم أجدْ من الكلمات ما يسعفني، فبكيت ولـم أقـوَ على مقاومـة هـذا السـيل الجـارف مـن الـدموع المحتبسـة خلـف جدارواهٍ من الكبرياء

(١١)

. أوشكت على الجنون لهول ما سمعت .. جعلته يؤكد ما قاله المرة تلو الاخرى : تقول إن جنازتي كانت مهيبة

فيجيب : نعم .. خاصة لأنك متِ محترقة بشموع حنتك ، في ا ليلة التي تسبق زفافك

زفافي ..؟

من زوج المرحومة أختك ..

***

يقول : كنت أجلس عند مقبرتك في وقت لا يوجد فيه غيري وأبكي .. أبكي عليك بمرارة نفسي المحترقة .

.أضرب كفا بكف .. أنا لا أفهم شيئا مما تقوله يا يوسف .. لا أفهم شيء

يتابع :عندما هاتفني سنوسي، وقال مريم: هنا في بيتنا.

قلت له مؤكدا" : مريم ماتت ، وقصصت عليه ما حدث

. عاد وهاتفني وأكد لي أنك هي .. وأنك على قيد الحياة

كنتُ أجري وأهاتفه ما بين لحظة وأخرى أقول: مريم على قيد الحياة ؟

هل قلت مريم في داركم وهي حية ترزق ؟ هل قلت ذلك للتو؟

(١٢)

قال : سنتزوج

قلتُ: بعيدًا عن مقام الحسين؟

قال : وخارج جدران الكنيسة ... سنتزوجُ فحسب.

سنتزوج قبل أن أُسجن بتهمة التزوير- تزوير في أوراق رسمية - لكوني أحمل بطاقتي هوية بديانتين ! .. ثم اردف قائلا" :

سـأطالب بسـجن هـذا البلـد معي فهـو مثلي يحمـل في قلبـه وفي أوراقـه الرسمية .ديانتين !. تماما" مثلي
قالها وضحك ، وبدا مطمئن القلب ، ولم يبدي أي قلق أو خوف
* * *
لم أنمْ... صخبُ الفرح الذي يَعمرُبه قلبي الآن، يجعلني لا أنام،
قلـتُ لزمـزم: أقسـمتُ عليـك بـالله على أن تجيبيني بصـدق : مـا حـدث حقيقة أم وهم هل جاء يوسف حقًا والتقيته هنا
أم أن ذلك كان مجرد حلم
تضحكُ زمزم، وتقول هو في غرفة سنوسي، اذهبي إليه وتحققي بنفسك، ثم تـوليني ظهرهـا، وتجـذبُ الغطاء على كاملهـا، وتقـولُ مـن خـلال تثاؤبهـا نامي ودعيني أنام.
وكيف أنام وحبيبي هنا في الغرفة المجاورة على بعد خطوات مني،
هو مثلي لا ينام أعرفُ ذلك ، أعرفه جيدًا، كيف أنام؟
كل هذا الصخب المبهج بداخلي وأنام؟
شلالاتٌ من الفرح برائحة الورد، وبطعم الشهد وبألوان قوس قزح، تهبطُ مـن السـماء العـلا إلى سـماء روحي إلى قلبي، فينـتفضُ وينفضُ عنـه غبـار الحزن وعذابات الليالي الفائتة، ويغسلُ جراحاته العديدة ،في مياه الفرح المباركة ، التي تطيب وتشفي تمزقات النفس ، وتسلخات الروح، وكدمات القلب ، وتفتت الأوجاع ، وتذيب كتل الألم ، فتتلاشى ، وتنتهي .
كيف أنام ؟
ليـالي الوحـدة الطويلـة الكئيبـة البـاردة المرعبـة، لـن تجـرؤ على أن ترينـا وجهها القبيح مرة أخرى.
أنامُ ..؟ كيف أنام وأنتظر الصباح ..؟ أنتظره حتى يأتي على مهل ؟

.لا أستطيع .. ومن أين لي الصبر.. أنا أذهب للصباح لأوقظه ،
سأجعله يرتدي عباءته الفضية التي تشعُ نُورًا، يرتديها على عجل كي تستيقظُ شمس النهاروتشرقُ.
سألقي بغطائي هذا بعيدًا، فلستُ بحاجةٍ إليه، فتيلُ الروح يشتعلُ، تُغذيهُ الأشواق ولأنك يا يوسف في عروقي، فدمي يَشتعلُ، ولأنك في أنفاسي ؛ فأنفاسي تضطرمُ وتتمايلُ كألسنة اللهيب
أشعرُأني موقدة كالشمس .. كنيران معبد هندي.
أنا في طريقي لآتي بالغد، وسأرقصُ حتى أصل إلي بوابته، وأغني من دون أن أُزعجَ تلك الراقدة بجواري ؛ غناء الأرواح على صخبه ؛ لا تسمعه الآذان القريبة
* * *
منذ الصباح الباكروالأهل يتوافدون رجالا ونساءً وأطفالا وصبيةً، شبابًا وشابات يشمرون عن سواعدهم، وقد تم توزيع العمل عليهم.
الرجال أعدو العدة لشيّ الذبائح التي نُحرت منذ قليل من الخراف والماعز، النسوة يخبزن، والفتيات يشرفن على الأواني والأكواب والصواني التي يوزعون من خلالها المشروبات.
وكنتُ أيضًا أُعاون النسوة في الطهي و إعداد الرقائق من دقيق القمح وغيره،
لن أشاهد يوسف اليوم لا يبقي أحد من الرجال بالبيت،
هو وسنوسي وشباب العائلة هناك في ساحة العائلة، يقيمون السرادقات ويزينون الأشجاربالمبات الملونة، ويستقبلون الضيوف والمدعوين من القرى المجاورة فلا يبقى بالبيت سوى النسوة والأولاد الصغارمن الصبية لقضاء بعض الأشياء

* * *

ارتدت زمزمُ ثوبًا من التل الوردي المبطن بالستان ، وكانت موفقة في اختيارها، فقد بدت بثوبها هذا كإقحوانة نبتت في الغابات المسحورة،
وقد اختارت طرحة من الستان ، تليقُ بثوبها وتتناغمُ معه،
وسبق أن اشتريت لنفسي ثوبًا أزرق اللون براقًا وله وشاحٌ مخملي من اللون الأحمر الناري
بالأمس قال لي يوسف: إننا سنتزوجُ غدًا أو بعد غد، لكنه لم يقلْ لي كيف ولا أين؟
استُقبلت زمزم عند دخولها على المجتمعات بدارهم .. استقبلت بالزغاريد والأهازيج السيوية، من الأقارب ، والجيران والمعارف من أهل البلدة
وقد أعدوا لها في باحة البيت ما يُسمى بخيمة العرائس، وهي خيمة صيغت من صوف الإبل، وقد وضع بداخلها أريكةً
تكتسي بالقطيفة الحمراء، وكانت الصبايا يقمن بالرقص والغناء، ولما قدم شقيقها سنوسي يحملُ الدفتر الخاص بالمأذون لتوقع فيه زمزم ارتفعَ التهليلُ واشتدَ التصفيقُ، وكنتُ بالقرب من زمزم، وقت أن دسَّ سنوسي ورقةً في يدي دون أن يلاحظه أحد، كنتُ أعرفُ أنها من يوسف، تسللتُ إلى ركن هادئ، وقرأتُ بلهفة ما جاء فيها:
حبيبتي هل تقبلين بي زوجًا، يبذلُ غاية جهده لإسعادك، يجعلُ من سنوات عمره القادمات خادمات لراحتك،
حارسات لأمنك؟
أتقبلين بي زوجًا وصديقًا وحبيبًا وأبًا لأبنائك وفيًا لهم ولك ما بقي لي من عمر؟!

أتقبلين بي شريكًا في الشباب ورفيقًا في الشيخوخة، حيث نصبح طاعنين في العمر نضعُ أطقمي أسناننا في كوبين من البلاستيك بلونين مختلفين ويكتب كل منا اسمه على الكوب خاصته خوفًا من الخطأ والنسيان؟

أتقبلين أن يكون الحاج علي وكيلا" عنك في عقد الزواج ؟

أنتظر الرد حبيبتي.

نعم أقبلُ بك زوجًا

وليكن الحاجُ علي وكيلًا عنِّي.

مريم.

****

البناتُ يقمن بعمل دائرة تتوسطها زمزم التي راحت ترقصُ ببراعة، وكنتُ أصفقُ لها مع البنات، ودخلت أمها الدائرة ورقصت معها، ثم عماتها وخالاتها بالتناوب، وكادَ الإحساسُ بالغربة أن يُخربشَ مشاعري من جديد، أخذتني زمزم من يدي، ودخلت بي تلك الدائرة لأشاركها الرقص فرقصتُ، بعيدًا عن تراب قريتي ورحبة عائلتي رقصتُ، بعيدًا عن حضن أمي وجدتي رقصتُ، بعيدًا عن فرحة إخوتي رقصتُ، بعيدًا عن عائلتي وجيراني وأهل بلدتي، أنا رقصتُ.

(١٣)

صبحٌ جديدٌ وجميلٌ لم نأبه لشمسه تأتي أو تغيبُ، تمطرُ سماؤه أو تفيضُ سيلًا، ففي كل الأحوال هو صبحٌ جديدٌ لبداية عمر جديد.

كانت العربةُ الحمراءُ ربع النقل، تنتظرنا وقد حمّلناها بأشجار الزيتون والرمان واللوز وفسائل النخيل وعبأنا ثلاثة براميل من الماء العذب، وأخذنا كريك ودلوا من البلاستيك، وصعد العم .علي . فوق ظهر العربة

بجوار الأشجار، وبدا ببندقيته كقائد حرب قديم، وضعَ على رأسه عمامة من الصوف اتِّقاء الهواء الشديد ، وكنتُ قد ودعت زمزم والخالة أم سنوسي، وكان وداعًا مشحونًا بالعاطفة.

جلستُ بجوار يوسف الذي أخذ مكانه بجوار السائق وانطلقنا إلى مرسى مطروح، فتحتُ دفتري الذي أكتبُ فيه قصتي مع يوسف، لأصف ما حدث بالأمس، حيث تم زواجنا المفاجئ، كان ذراعي يستمدُ الدفءَ والقوةَ من ذراع يوسف، وكان يوسفُ يحاولُ قراءة ما أكتبُ وكنتُ أمنعه حتى الانتهاء من الكتابة غير أنه كان يسترق بعينه بعض الكلمات ويبتسمُ، وكانت العربةُ التي تقلنا وأشجارنا وأحلامنا تتأرجحُ ذات اليمين وذات الشمال، ما جعلَ بعض الكلمات تَخرجُ عن السطر والبعض الآخر يخرجُ عن السيطرة ويوسفُ يتابعُ ذلك كله ويضحكُ.

عندما توقفت العربة فوق الأرض الخاصة بنا لم أصدقْ نفسي أوشكتُ أن أبكي لشدة فرحتي، يوسف والسائق والعم علي قاموا بدحرجة البراميل أرضًا وأنزلوا الأشجار وعاونتهم في حمل بعضها، ثم تحركت العربةُ وقال الحاج أبو الدهب، وهو يرفعُ يده مُحييًا:

لن أغيبَ أكثر من ساعتين، لأحضر لكما مفتاح الشقة.

وكان العمُ . علي . قد اتفق بالأمس، مع أحد أقاربه من المدعوين في فرح ابنته أن يُؤجرَ يوسف شقة مفروشة عادة ما يؤجرها الرجل للمصيفين كل عام، إلى أن نحصلَ على شقة خاصة بنا.

***

يتحد البحرُ، والرمال ، والسماء بحنان لا مثيل له .. كبيرًا، قلب البحر، وأمواجه جبالًا مُتحركةً مهيبةً وصوته يملؤنا بالطاقة الكبرى،، أطلقت عدة صرخات ، تعبر عن جنون سعادتي

خلعنا أحذيتنا وجرينا إليه، وغاصت أقدامنا في رماله الطرية، جعلتُ أدورُ كدوامة كبرى، كطفلة فرحة بثيابها الجديدة في صباح العيد.
تجاهلت الغصةُ التي شعت مرارة في حلقي فجأة، ولا أدري مصدرها وتجاهلتُ أيضًا تلك اليد الخشنة التي قبضت على قلبي في ذات اللحظة، وكادت أن تدميه، تجاهلتها وأبقيتُ على ابتسامتي فوق شفتي.
عانقني يوسف وحملني بين ذراعيه ودار بي عدة دورات وضحكنا ملء عروقنا والشوق بداخلنا يعجزُ هذا البحر الكبير عن إطفائه.
قال يوسف وهو يحوطُ خاصرتي بيديه: بعد قليل سأمتصُ شهد هاتين الشفتين، وسأقضمُ تفاح الخدين، وأبسطُ خصلات شعرك فوق وسادتي، أشمُ عطرها وأمرغُ وجهي في نعومته وأسكرُ أسكرُ، لكمته برفق في كتفه وأنفلتُ منه وقلتُ هيا لنزرع فالعم .علي . أوشكَ على الحضور.
أخذنا نعملُ بجد، كان يوسفُ يُحدثُ حفرةً بواسطة الكريك، فأعطيه شجرةً فيغرسها في الحفرة، ثم يغطي جذورها بالرمال، فأناوله دلوًا من الماء ليرويها، لنبدأ بغيرها وهكذا، لم يتبقَ سوى شجرة زيتون واحدة، أعطيتها ليوسف، وأمسكتُ بقلمي، وكان دفتري قد امتلأ، ولم يبق به سوى ورقة واحدة بيضاء كتبتُ فيها:
خاتمة
كنا عاشقين مُشتتين مُعذبين نشقى بفراقنا القسري، الآن أصبحنا زوجين عاشقين، لا يعرف الفراق طريقًا لنا، نقفُ فوق أرضنا نغرسُ أشجارًا وآمالًا.
قصتي مع يوسف لن تنتهي، فاللحب دائمًا بداية أخ خ خ خ خ .....
* * *

بلاغ عاجل

سيادة اللواء مدير أمن مطروح إنه وأثناء مروري أنا المواطن إبراهيم أحمد عيسى المصري بمنطقة الأُبيض، وكان هناك شاب وفتاة يزرعان الأشجار في قطعة أرض، وإذا بوابل من الرصاص، قد انطلق صوبهما من جهات عدة، وقد تصادف مرور عربة حمراء ربع النقل، تُقلُ أحد الرجال، فأطلقَ من بندقيته عدة أعيرة صوب الجناة الذين لاذوا بالفرار، فأرجو التوجه سريعًا إلى هناك.

هذا وقد قمتُ بإبلاغ الإسعاف ...

فقد يكون أحدهما أو كلاهما على قيد الحياة.

إبراهيم أحمد عيسي المصري

****

نداء إنساني

أهالي مطروح الكرام، تم الإبلاغ من قبلي، أنا المواطن إبراهيم أحمد عيسى المصري عن حادثة مروعة، وجريمة شنعاء، حيث أُطلق النارعلى المواطنين يوسف ومريم، وذلك منذ ساعتين ونصف الساعة، وكنتُ قد عثرتُ في مكان الحادثة علي قصتيهما التي انتهيت من قراءتها منذ قليل إلا بعض من سطورها التي اختفت تحت طبقة من الدماء مُختلطة بالحبر والرمل وماء البحر، أجتهدُ لاستشفاف معانيها.

هذا وقد توجهتُ مُباشرةً إلي مستشفى مطروح المركزي للاطمئنان عليهما، وقد أجريت لكليهما جراحة دقيقة.

يقولُ الأطباءُ: إنهما يقاومان الموت ، فيما يشبه المعجزة.

نرجو التوجه الفوري إلى مستشفى مطروح العام،

نسألكم الدعاء. والتبرع بالدماء

إبراهيم أحمد عيسي المصري

خاتمة

عزيزتي مريم / وبينما أقوم بنشر حكايتك ،
تلبية لرغبتك ،وتنفيذا" لمطلبك
أتمنى من الله أن تكوني بخيروعلى قيد الحياة ..
وعلى قيد الأمل

جمالات عبد اللطيف محمد

سيرة

- جمالات عبد اللطيف محمد
- مواليد مدينة "أبوتيج" بأسيوط .
- تقيم في طهطا محافظة سوهاج .
- محاضر مركزي وعضو اتحاد كتاب مصر.
- الرئيس الأسبق لمجلس إدارة نادي أدب طهطا .
- نشرت في العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية .

- صدر لها :

١- . انا النيل يا ولدي / قصة طويلة للأطفال

٢- الصبار فوق شفاه وردية ، مجموعة قصصية .

٣- خطوط سوداء فوق وجه القمر، الهيئة العامة لمحو الأمية وتعليم الكبار بالاشتراك مع اليونسكو وهي قصة فائزة بالمركز الأول على مستوى الجمهورية .

٤- كتابات من رحيق العشق ، كتاب مشترك ، الهيئة العامة لقصور الثقافة .

٥- يا عزيز عيني ، رواية ، ط١ فرع ثقافة طهطا . ط٢ ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م طبعة ثالثة دار اقرأ للطباعة والنشر

٦- حكايات من نجع الطيبة . الهيئة العامة لقصور الثقافة . سلسلة(اصوات ادبية)

٧- يا حبة الروح / رواية ط مركز الحضارة العربية

٨- رحلة الشتاء بحث في التراث)

- **الجوائز:**

- جائزة التفوق في الإبداع .
- درع الهيئة العامة للثقافة .
- درع اقليم وسط وجنوب الصعيد الثقافي
- درع التميز نادي القصة بأسيوط
- درع محافظة المنيا .

- **التكريمات**

كُرمت من قبل السيد وزير الثقافة عام ٢٠٠٢م بمناسبة فوز روايتها ياعزيز عيني كأفضل رواية علي مستوي الجمهورية ، كما كرمة للمرة الثانية عام ٢٠٠٣م في مؤتمر أدباء مصر بالأقاليم والذي أقيم بالمنيا وكانت أول أدبية يكرمها المؤتمر.

كما تم تكريمها من قبل نادي القصة بأسيوط وحصلت على درع التميز في الإبداع كما تم تكريمها من قبل السيد محافظ سوهاج

احتفت بتجربتها الإبداعية قناة الحرة الأمريكية وتم تكريمها في جمهورية لبنان الشقيق واجرت العديد من المقابلات الإعلامية اهمها وابرزها إذاعة مونت كارلو الدولية حصلت على العديد من شهادات التقدير وشاركت في العديد من المؤتمرات الأدبية.